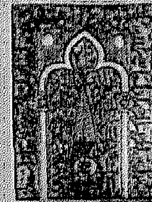
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٥ • أيار (مايو) ١٩٨٣م • الموافق شعبان ١٤٠٣هـ.



□ زخرفة عربية قديمة، عبيه ـ لبنان



الغلاف الأول

كوة محراب، تزينها زخرفة قرآنية تعود إلى القرن الثالث عشر ميلادي من كتاب «روائع الاسلام» برنار لويس

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٥ ــ أيار ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5, No. 55, MAI 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧

(١)

د. ادمون رباط

تعريب: د. محمد المجذوب

شكلت الثورة الوطنية التي اندلعت في سوريا، في عام ١٩٢٥، الفترة الأشد عنفاً في تاريخ النضال الطويل الذي خاضه الشعب السوري ضد الانتداب الفرنسي، غداة معركة ميلسون التي حدثت في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠، على أبواب دمشق، والتي كان من نتائجها المباشرة سقوط المملكة الهاشمية التي أسست على أثر انهيار الامبراطورية العثمانية.



وبعد محن وتضحيات لا حصر لها، استطاعت سوريا، في عام ١٩٤٣، أن تنال استقلالها، وتحرر بعد ثلاث سنوات، أرضها من كل احتلال أجنبي. وهذا يعني أن ثورة عام ١٩٢٥ قد أصبحت في ذمة التاريخ. ولكنها، مع ذلك، تمثل صفحة مثيرة جداً تستحق الذكر. ومن هنا تتجلى فائدة العودة إليها ومحاولة سد فجواتها في ضوء بعض وثائق العصر.

(الحلقة الأولى)

أولا ـــ قضية كاربييه (Carbillet)

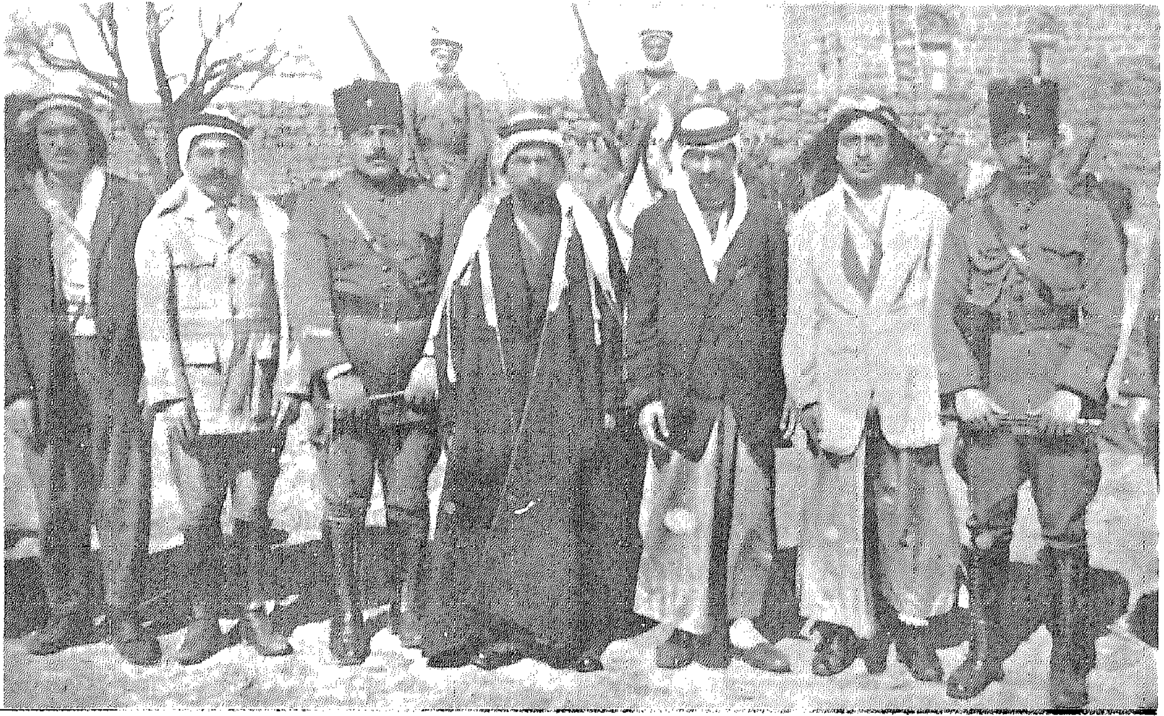
تعود الجذور المباشرة للثورة إلى هذه القضية. وقد نشأت الثورة، في عام ١٩٢٥، في منطقة حوران، حيث شكلت فرنسا، وهي الدولة المنتدبة، في عام ١٩٢١، وبشكل اعتباطي، كياناً سياسياً تحت إسم: **الحكومة الذاتية لجبل الدروز**. وامتدت الثورة، شيئاً فشيئاً إلى دمشق لتشمل، فيما بعد، كل الأراضي السورية تقريباً.

وحملت وفاة سليم باشا الأطرش، حاكم جبل الدروز، النقيب (كاربييه)، مستشاره الإداري، على أن يحكم مكانه، بالنيابة أولا، ثم، في أواخر



سلطان باشا الأطرش





□ سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية (أول صورة فوتوغرافية له).

عام ١٩٢٤، بالتعيين من قبل مجلس «الجبل» الذي تم انتخابه آنذاك بالاقتراع العام على درجتين. وصدر عن المفوض الفرنسي السامي، الجنرال ويغان (Weygand)، مرسوم بالتصديق على هذا التعيين. وبعد ستة أشهر طالب الدروز الذين عيل صبرهم باستدعائه.

إن الازدهار المادي الذي تحقق بفضل إدارة النقيب (كاربييه) أمر لا ينكر، فنشاط هذا الضابط الفرنسي لم يهمل شيئاً. لقد اهتم بالطرق، والمدارس (الفرنسية)، وضبط الإدارة، والإصلاحات القضائية واقتصاديات الموازنة. غير أن جميع هذه الاصلاحات لا يمكن أن تتم دون دكتاتورية ثقيلة ومتشددة تولد استياء خفيا لدى السكان. وإذا كانت أهداف الحاكم جديرة بالثناء فان الوسائل التي استخدمت لبلوغها قد أثارت، بحق، الاحتجاج والمقاومة. فالمجهود الذي طلب من السكان تقديمه، لتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة، كشق الطرق وحفر القنوات، التي كان «الجبل» في أمس الحاجة إليها، «قد أحدث شيئا من الاستياء لدى الجماهير. فلم يكن بالامكان تنفيذ هذه الأشغال بالاعتماد فقط على موارد ميزانية لا تتجاوز وارداتها الثمانية ملايين من الفرنكات. ولهذا كان من الضروري إنجاز القسم الأكبر من هذه الأشغال بمساعدات يقدمها السكان بجوار قريتهم. وبالنسبة إلى بعض الأشغال فقد طلب منهم بذل مجهود كبير»[1].

وللقيام بهذه المهمة، كان يجب أن يكون هناك رئيس كالنقيب (كاربييه). «ان استبداديته كانت الشرط الضروري لتحقيق تقدم سريع في بلد كهذا البلد: ان وكلاء الانتداب عليهم غالبا أن يختاروا بين ممارسة سلطة مباشرة وفعالة تتدخل في كل شيء، ولكنها تحصل على نتائج، وبين سياسة متساهلة ترى استمرار الفوضى... التي ترتكبها سلطات محلية نحرص على عدم ازاحتها... ان حكومة جبل الدروز قد اختارت السياسة الأولى وتمادت فيها، ولكن خطأ هذه السياسة أنها كانت تفرض على من يتبعها التخلي عن المناهج الخاصة الملائمة للانتداب... وكان من سيئات هذه السياسة، ذات القصد السليم، انها كانت خطرة... فالحاكم المقتنع بأنه كان يعمل لمصلحة الجمهور كان يضطر بحرارة القمع، إلى جعل نفسه مرهوبا...»[2].

ان هذه الأسطر الرسمية، الصادرة عن الحكومة الفرنسية، تدين في الحقيقة، تحت غطاء

من الاعتـدال الدبلومـاسي، سيـاسـة النقيب (كاربييه). وهي تبرر، خصوصا، شكاوى الدروز، ولا سيما تلك الشكاوى التي كانوا يوجهونها ضد الموظفين المتأثرين بعقلية سيدهم ومناهجه. «وكان لدى مسـاعديـه من سكان البلد... ميـل إلى التجاوزات، ففي حالات كثيرة كان رجال الدرك، بلا شك، قساة، واستطاع المعلمون الإفادة. من العلاقات التي كانت تربطهم بالحـاكم لتحقيق مكاسب على حساب الشعب»(٣).

فمن المؤكد، أن النقيب (كاربييه) قد أساء استعمال دكتاتورية واقعية اجازتها وحمتها القوة الفرنسية. والسلطات الفرنسية قد اعترفت، في النهاية، بمعظم هذه التجاوزات التي قد يصعب علينا تعدادها. وفي العرائض المرفوعة إلى المقدم تـومي ــ مارتـان (Tommy-Martin)، الذي ارسل إلى «الجبل» ليحـل محل النقيب رينـو (Reynaud)، الحاكم بالنيابة، «ذكر عدد من التهم الواضحة والأساليب الجـائرة والقسـوة المتناهية، المنسوبة إلى الحاكم الذي كان في إجازة وإلى عدد من مساعديه. وفتح تحقيق أثبت أنه إذا كان بالإمكان تبرير عدد من هذه الاتهامات، فان بعضها، على الرغم من المبالغة فيه، لم يكن دون أساس»(٤). وهذه الوقائع أضفت المشروعية عـلى احتجاجـات الدروز وجعلت من المعقـول تحقيق رغبتهم في تغيير المسؤول عن شؤونهم.

ومنـذ الأشهـر الأولى لعـام ١٩٢٥، ظهـر الاستيـاء بوضـوح، دون خشية من التـدابير الانتقامية. «ولم يتسع الا ابتداء من اللحـظة التي خفت فيها سطوة هذا القائد (كاربييه)، الذي أجبر، في ٢٣ أيار (مايو) ١٩٢٥، على أخذ إجازة استجمام كان في أشد الحـاجة إليهـا. ورفعت إلى النقيب (رينو)، الضابط المكلف بأن ينوب عنه، عرائض ممهورة بتـواقيع عـديدة، تطالب باستبدال الحاكم»(٥).

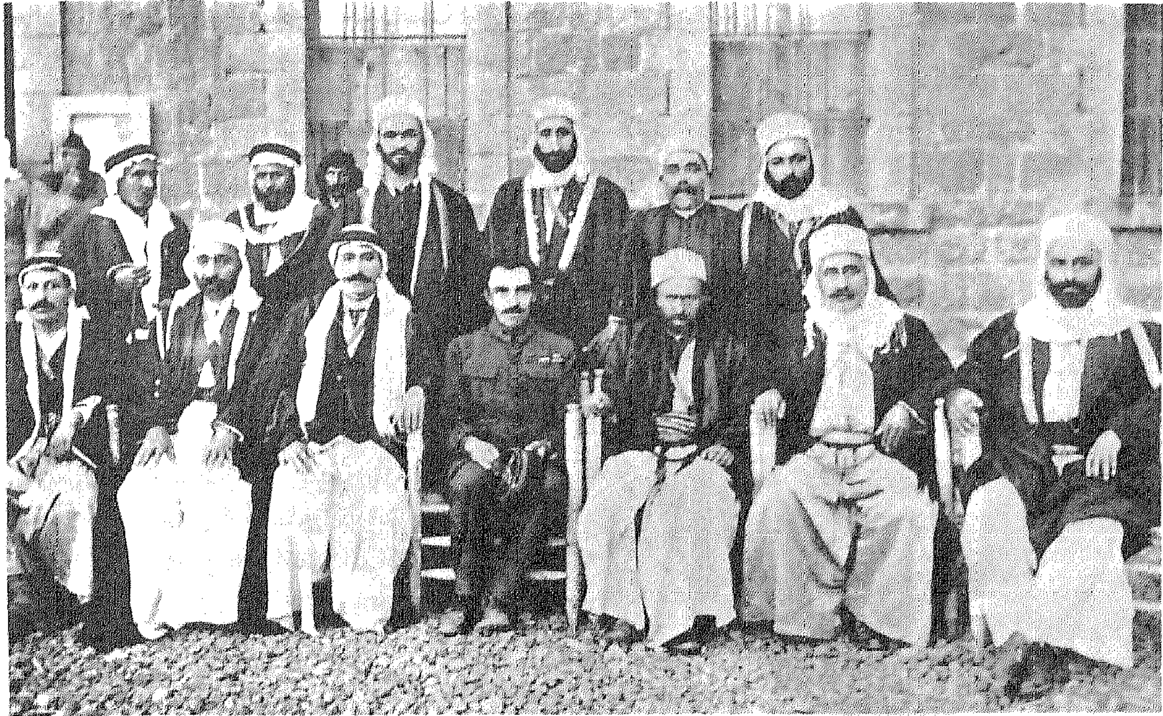
والحملة التي برزت بمثل هذه الضخامـة، وادت إلى إجمـاع «الجبل»، كان لها طابع من الخـطورة الحقيقية حملت النقيب (رينـو)، في ٢ حزيران (يونيو)، على رفع تقرير إلى مندوب المفوض السامي في دمشق، وهو رئيسه الأعلى، وصف فيه الوضع بموضوعية وأشار إلى كراهية القادة والشعب لسلفه. وقد ورد فيه «أن هناك



متعب بك الأطرش

حملة مـوجهة ضـد النقيب (كاربييـه)، حملة لا يشارك فيها فقط أفراد عائلة الأطرش الذين أعلنوا المعارضة في الفترة الأخيرة، بل تقوم بها كذلك الغالبية العظمى من العـائلات الدرزية الأخرى... إن أفراد عائلة الأطرش الذين مثلوا، إفراديا، أمام الحاكم الجديد بالنيابة، للاعراب له عن اخلاصهم للدولة المنتدبة... قد طلبوا مني الاستماع اليهم بطريقة كفيلة، كما قالوا، بإزالة سوء التفاهم الذي كان قائما بينهم وبين المندوب في دمشق والجنـرال المفـوض السـامي...». وأضاف النقيب (رينو) قائلا بأنهم أعلنوا ما يلي: «لاظهار وفائنا وخضوعنـا... فإننـا لن نطالب بحاكم وطني... اننا نرغب في أن يكون لنا حاكم فـرنسي، ولكـن بشـرط ألا يـكـون النقـيـب (كاربييه)...». «ومن المناسب، في الوقت الراهن، تكليف أحد مندوبيكم ــ المساعدين مهمة القيام بتحقيق هنا. وهذا التحقيق، في رأيي، ضروري، لأنه يبدو لي أن الوقائع التي كـان لي شرف سردها لكم من شأنها تعقيد عملنا المقبل في «الجبل» بشكل غريب، إذا تجاهلنا اليوم رغبات جبل الدروز...»(٦).

وفي ٢ حزيران (يونيو)، تلقى المفوض السامي



□ كابتن كاربييه مع المجلس الدرزي.

برقية «موقعة» من ٢٤ وجيها من وجهاء «الجبل» يطلبون فيها مقابلته «لدعم النقيب (رينو)، الذي عرف، كما قالوا، كيف ينعش من جديد تعلقنا بفرنسا ويبدد سوء التفاهم». ولم يرد المفوض السامي أبدا على هذا الطلب.

وفي اليوم التالي بالذات، استقبل النائب الفرنسي أوغست برينيه (Auguste Brenet)، الذي كان مارا بدمشق، وفدا درزيا يضم ٣٨ شخصية تمثل ١٧ عائلة من أكبر العائلات في «الجبل»، وسبقه أعضاء من المجلس التمثيلي في السويداء، وواحدا من الزعماء الدينيين الأربعة الذين كانت لهم الهيمنة على عقل الدروز. واستمع إلى شكاواهم ووعد بنقلها إلى المفوض السامي.

وفي ١٥ منه، توجه هذا الوفد الجليل إلى بيروت. غير أن المفوض السامي، الجنرال ساراي (Sarrail)، رفض مقابلته[٧]، فغادر الوفد بيروت مهانا غاضبا.

وبعد ثلاثة أيام، رفع تقرير ثان من النقيب (رينو) إلى دمشق لدعم مطالب الوفد الدرزي. وقد ورد فيه «أن هناك حركة عامة تحملنا على توجيه أعظم الانتباه إلى الأحداث»[٨].

وأخيرا، وفي ٢٧ حزيران (يونيو)، طالبت رسالة جماعية كذلك، موقعة من الزعماء الذين ظلوا حتى الآن على الحياد، باستبدال (كاربييه). وجرت محاولات أخرى، باشرها دروز لبنان بزعامة الأمير فؤاد أرسلان، ولكنها أجهضت ايضا.

وجميع هذه الجهود كان الغرض منها، حتى الآن، وإلى حد كبير، استبدال (كاربييه). وحينئذ ظهر في الرأي العام الدرزي، نتيجة رد الفعل، تيار أكثر جذرية. وكان وفد أتى دمشق، في أيار (مايو)، للترحيب بالمفوض السامي، بعد رحيل الحاكم، قد تجرأ وطالب بتطبيق اتفاق عام ١٩٢١، الذي كان ينص على التزام الدولة المنتدبة بتسمية حاكم درزي «للجبل». ولكن الجنرال (ساراي) أعلن عدم اعترافه بصحته. وقال الدروز: «إن الظروف تقودنا الآن إلى مطالبتكم بالحقوق التي تمنحنا إياها معاهدتنا». وأجابهم الجنرال (ساراي): «معاهدتكم!! معاهدتكم!! قبل كل شيء، إنها لم توقع الا من قبل واحد من زعمائكم الدينيين». ورد المندوبون الدروز: «طبعاً، ان هذا الزعيم كان منتدبا من قبل الآخرين، كما كان السيد كيكس (Caix)

(الذي وقع المعاهدة عن الجانب الفرنسي) منتدبا من قبل الزعماء الفرنسيين. وبالنتيجة، فإنه لم يكن بإمكان المندوب الفرنسي وضع توقيعه في أسفل وثيقة كهذه ما لم يدقق في صلاحيات مندوبنا»(٩).

وبعد عدة أيام، أوضح الجنرال، في رسالة إلى مندوبه في دمشق، أن اتفاق ٤ آذار (مارس) ١٩٢١ كان لاغيا، لأن «واحدا فقط من الزعماء الدينيين الدروز الأربعة قد وقعه»، وألمح إلى المقابلة التي عقدها مع الوفد الدرزي في دمشق وقال: «لقد استنتجت أن هذه الورقة ليس لها الا قيمة تاريخية، وقلت إنهم، إذا لم يعتبروها لاغية ودون مفعول، سيثيرون شغبا ويعرضون أنفسهم للمعاملة كمتمردين»(١٠).

ومع ذلك، وللحقيقة، فهذه المطالب لم تبلغ أبدا من الحدة ما بلغته المطالب الرامية إلى استبدال النقيب (كاربييه). وكان بالإمكان تهدئة اضطراب «الجبل» بالإعلان، أو على الأقل بالوعد، باستبداله النهائي. غير أن كل الوسائل أخفقت في التغلب على إصرار المفوض السامي على الاحتفاظ برجل في مكانه بعد أن أجمع مساعدوه على اعتباره خطرا على السلام العام.

واتسعت الحركة. و «في بداية تموز (يوليو)، أشار الوفد الفرنسي في دمشق إلى الخطورة التي يمثلها الغليان في المنطقة الدرزية. وبدا له أن الحركة، سواء أكانت مبررة أم لا، تستحق انتباها رصينا، فقد امتدت بالفعل، إلى أوساط لا تخضع لعائلة الأطرش (المتهمة بالتحريض عليها)، كما أثبتت ذلك عريضة موجهة في ٨ تموز (يوليو) إلى المفوض السامي، تحمل مئة من الأسماء المعروفة في (الجبل)»(١١).

ورفض المفوض السامي الرضوخ. وبلغ الهيجان في «الجبل» ذروته. وفي ٣ تموز (يوليو)، وقع في «الجبل» حادث خطير أثار الخشية من حدوث اضطرابات قريبة، فقد تعرض الملازم موريل (Morel)، أحد المعاونين المباشرين للحاكم، للضرب واطلاق النار عليه. وبفضل نفوذ النقيب (رينو) أعيد الهدوء. ولكن مدينة السويداء، التي كانت مسرحا لهذه المناوشات الأولى، عوقبت بغرامة مقدارها ٢٠٠ ليرة ذهبا.



□ المفوض السامي «سراي» في دمشق.

ومع ذلك، فقد ساء الموقف وساد شعور بأن شرارة الحرب تلوح في الأفق. غير أنهم في بيروت استمروا في اعتبار هذا الهيجان، الذي كانوا يقللون من شأنه، عملا يرتكبه بعض المشاغبين الذين لا تأثير لهم في الجماهير، والذين أظهرت الحكومة المؤقتة تجاههم تسامحا مشجعا إلى حد بعيد.

وبعد أن أصبح النقيب (رينو) مشبوها، حل محله المقدم (تومي ــ مارتان)، رئيس مصلحة الاستخبارات في دولة سوريا. وقد وصل السويداء، في ١٦ تموز (يوليو)، وسط هتافات السكان المقتنعين بأن هذا التغيير يشكل التفاتة كريمة من جانب الدولة المنتدبة التي سيكون لمبعوثها الجديد مهمة التحقيق على الطبيعة في التهم الموجهة إلى (كاربييه)(١٢). وبذلك أصبحت العرائض التي رفعت والوفود التي استقبلت عديدة وصلبة في اتهامها لهذا الأخير، وأصبح إجماعها مقلقا إلى درجة جعلت المقدم (تومي ــ مارتان)، الذي اعتبر الوضع خطيرا، يعرب لرؤسائه في بيروت عن هذه الخطورة ويحدد، في نفس الوقت، التدابير الفورية التي يجب اتخاذها لتلافي التمرد المنذر بالخطر(١٣).



□ حمد بك عامر احد زعماء الثورة البارزين.

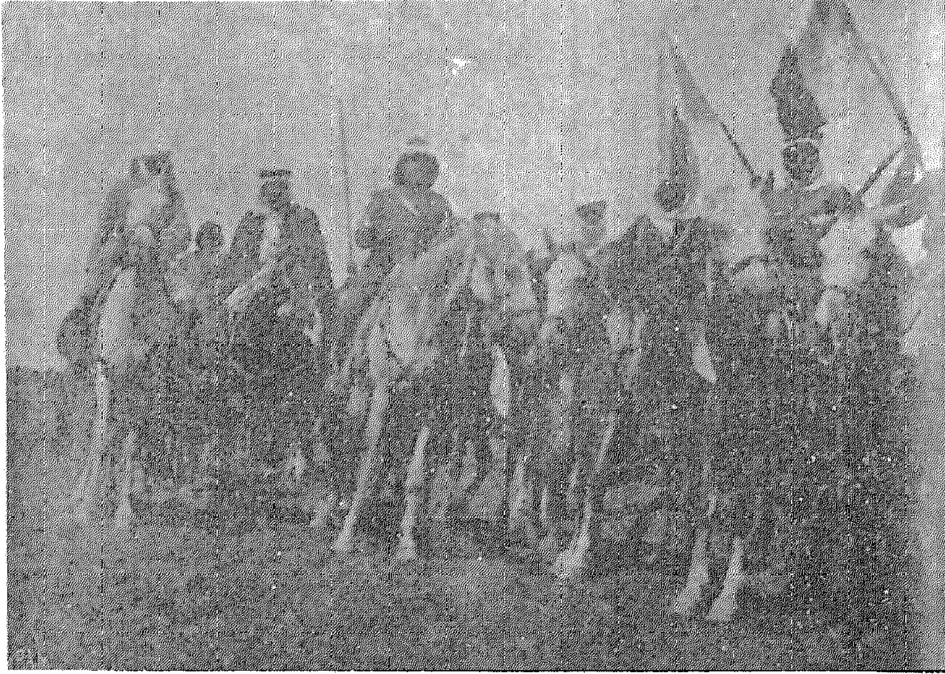
وعلى الرغم من هذه البوادر التي كانت تنبىء بانفجار قريب، فقد صدر عن الجنرال (ساراي) أمر موجه إلى المندوب في دمشق يعلن، باقتضاب، «بأن النقيب (كاربييه) سيعود إلى مركزه». ويبدو أن هذا الأمر كان ينطوي على رغبة في أن يبقى بلا جواب. وأمر المفوض السامي باعتقال الشيوخ الخمسة البارزين في عائلة الأطرش، معتقدا أن هذا كفيل بوضع حد لدسائس المشاغبين. «ولذلك، لجأ إلى طريقة اعتبر بول بانلو فيه (Paul Painlevé)، رئيس مجلس الوزراء آنئذ، امام لجنة الشؤون الخارجية، أنها تنطوي على نية سيئة ليست من عادات فرنسا»[١٤].

واستدعي الخمسة من آل الأطرش إلى دمشق، بحجة السماح لهم بشرح مطالبهم. ولم يحضر إثنان منهم: متعب وسلطان باشا. الأول ادعى المرض، والثاني، وهو أكثر الجماعة تمرسا بالقتال، لم يقدم أي اعتذار. والثلاثة الآخرون: نسيب وحمد وعبد الغفار، الذين وصلوا دمشق، أرسلوا فورا إلى تدمر واعتقلوا.

وهذا التصرف العنيف لم يكن الا نتيجة منطقية لسياسة طويلة من التسلط العصبي والغيور، الذي لم يسمح الانتداب دائما بالانطلاق منه، منذ حلوله في سوريا. والجدير بالملاحظة أن الجنرال (ويغان) هو الذي عين النقيب (كاربييه) وسانده. وهذا ما فعله، في تلك الفترة، الجنرال (ساراي). ولو وضع سلفه في نفس الظروف لكان تبنى نفس الموقف. والانصاف يقضي بالاعتراف بأن الجنرال (ساراي) لم يكن بوسعه الامتناع عن اتباع تقليد استبدادي متين الجذور في المفوضية السامية. لقد أعلن دوريو (Doriot)، في مجلس النواب: «لقد فوجئت لإرادة الجنرال (ساراي) في اتباع مناهج أسلافه في سوريا. وسمعته يتلفظ بالعبارات التالية: (لم أكن أرغب في تغيير ما فعله أسلافي)، أو (لم أستقبل الدروز، وكذلك فعل أسلافي). وبالنسبة إلى موضوع معاهدة عام ١٩٢١، قال: (لست أنا الذي انتهك حرمة الاتفاق. إنه من الواضح أن أسلافي هم الذين انتهكوا حرمته قبلي)»[١٥].

وكان الفرنسيون الموجودون في سوريا يرون، للدفاع عن هيبة أسيء فهمها وكثر الحديث عنها، إن الكلمة الأخيرة يجب أن تبقى للدولة المنتدبة. وهذا الخط من السلوك قد اتبع دائما. ومن وجهة النظر الفرنسية، فان الإهمال الوحيد الذي ارتكبه الجنرال (ساراي) يكمن في أنه تسرع في الحكم على مشاعر السوريين تجاه دولة الانتداب. وهنا أيضا، وعلى غرار جميع الفرنسيين آنذاك، فان كل ما فعله هو الإيمان باسطورة نداء سوريا لفرنسا. وهكذا عرض نفسه للمفاجأة في وقت كانت فيه سوريا، بعد خمس سنوات من الاحتلال العسكري، الدقيق والثقيل، مجردة من الفرق العسكرية اللازمة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف المعنوية والسياسية والاقتصادية للبلد، فقد كان على الثورة أن تنفجر في هذه اللحظة. وقد أشعل (كاربييه) الحريق الذي كان كامناً، وخصوصا في جبل الدروز، ذلك المركز السوري للمقاومة الأشد عنفا، ومن هنا الهبت جذوة الحرب سوريا الوسطى، حول دمشق، مركز العروبة الذي لا مثيل له، والنقطة الحساسة للإسلام. وقد تم ذلك بسرعة ما زالت مستعصية على التعليل إذا اكتفينا بالأسباب السطحية التي قدمتها آنذاك الصحافة الفرنسية، كطموح بعض الزعماء، أو ما سمي بالتحريض الخارجي.

ومع ذلك فان الزعماء الدروز بذلوا الجهد، حتى آخر لحظة، لكي تبقى إرادتهم سلمية. ولكن اعتقال الكثيرين من رفاقهم جرح كرامتهم وأجج



□ الامير سليم الأطرش مع قوات الثورة.

شعلتهم القتالية، الموروثة عن الأجداد، التي ظلت خامدة لفترة من الزمن. والمسؤولية تقع، دون ريب، على ممثلي الانتداب في بيروت(١٦). وقد أطلق ضابط فرنسي صرخة قبل المعركة فقال: «لقد خضت الحرب كلها، ولم يعد يعنيني منها إضافة مسألة أو إنقاص أخرى، ولكنني في هذه المرة أشعر بضيق في قلبي لأن هذه الحرب كان بالإمكان تحاشيها. ثم إن هؤلاء الناس يشتكون من تجاوزات حقيقية... ويطلبون الاستماع إليهم. ألم يكن ذلك حقهم؟ لقد أغظناهم. وعندما ندرك ذلك نجد من القسوة إطلاق النار على عدونا. آه، لو كانوا في فرنسا يعلمون ما يجري هنا»(١٧)...

ثانيا ــ الحرب

وفي اليوم التالي لاعتقال الزعماء والدروز صادف النقيب نورمان (Normand)، الذي لقي مصرعه بعد ثلاثة أيام وكان محبوبا من الدروز لعدالته وتجرده، أحد السكان في شوارع السويداء، فسأله عما يجري، فرد عليه قائلا: «لقد ألقوا القبض على أسيادنا». وأجابه النقيب (نورمان): «هذا ليس ممكنا، فالمفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي، وليس مؤهلا للقيام بعمل من هذا النوع».

والمؤسف أن الدرزي كان يجهر بالحقيقة. ولم يكد الخبر المحزن ينتشر حتى أعطى إشارة الهيجان العام في «الجبل» ضد دولة الانتداب. وتسلم سلطان باشا الأطرش زمام القيادة.

وأذاع على الشعب السوري بيانا جاء فيه ما يلي:

«إننا لم نطلب من الظالم الا استبدال حاكم فرنسي غير انساني بحاكم آخر من جنسه. ولم يكف أن أمنيتنا لم تستجب، بل أن مندوبينا قد طردوا كالخراف، واعتقلوا ظلما وبهتانا... لقد قضي الأمر. وحربنا هي حرب مقدسة. لقد شهرنا السيف ولن نعيده إلى غمده الا بعد تحقيق آمالنا، وهي:

١ ــ الاستقلال الكامل لسوريا العربية، الواحدة وغير المجزأة، بساحلها وداخلها.

«٢ ــ تعيين حاكم وطني وإجراء انتخابات حرة لاختيار جمعية تأسيسية من أجل وضع النظام الأساسي(١٨).

«٣ ــ إجلاء جيش الاحتلال الأجنبي عن البلاد وإنشاء جيش وطني للحفاظ على النظام والأمن.

«فإلى السلاح... والله معنا!

«عاشت سوريا المستقلة!».

وفي ١٧ تموز (يوليو)، شوهدت تجمعات

مقلقة، واضطرت إحدى الطائرات التي كانت تقوم بمهمة استطلاعية إلى الهبوط، تحت الرماية الدرزية، في امتان، على بعد عدة كيلومترات من الحدود الفلسطينية. وحاصر القرويون جنود الاحتلال، ولم ينقذهم الا زعيم شاب من آل الأطرش شملهم برعايته. وبعد يومين، احتل سلطان باشا، دون أن يلقى مقاومة، مدينة صلخد، وهي المدينة المهمة الثانية في «الجبل»، وأحرق السراي تلويحا بالعصيان.

غير أن أول هجوم جدي على الجند الفرنسيين لم يحدث الا في ٢١ تموز (يوليو)، وكان ضد النقيب (نورمان) نفسه، الذي كان معروفا من الدروز، فقد توقفت الفرقة التي كان يقودها (بغية انقاذ حياة الطيارين الموجودين في إمتان) في الكفر، وهي موقع مياه استراتيجي في جنوب غربي السويداء. وعرض سلطان عليه التراجع. وعندما رفض القائد، وهو أمر طبيعي، هاجم سلطان الفرقة وأهلكها، فمن بين ١٦٦ رجلا تتكون منهم الفرقة، قتل ٨ ضباط و ١٠٧ جنود في مجابهة جسدية شرسة[١٩].

وفي مساء اليوم الذي وقعت فيه المجابهة، بدأ حصار الثكنة المحصنة في السويداء، حيث لجأت بقية فرقة (نورمان) والحامية العسكرية وسلطات المدينة.

ولفك الحصار عن السويداء، ومعاقبة سلطان، والثأر لقتلى قرية الكفر، شكل، برعاية الجنرال ميشو (Michaud)، الذي كلفه المفوض السامي تسوية هذا «الحادث»[٢٠]، طابور كبير «مكون من جميع العناصر التي أمكن جمعها في سوريا»[٢١]. وعلى الرغم من الرأي المعارض الذي أبداه بعض القادة ممن كانوا أحسن اطلاعا على الحالة السيئة لوحداتهم، فقد تورط الطابور، الذي تكون بانفعال، في معركة «الجبل»، في ٣ آب (أغسطس)[٢٢]. وفي موكب في عين المزرعة، هوجمت قافلته وتكبدت خسائر فادحة. وعندما شطر أفراد الطابور إلى نصفين، وحرموا بذلك من الذخائر، وأرهقوا من قبل الدروز، تقهقروا باتجاه قاعدتهم في حالة مريعة من الارتباك. وأدى قنوط القادة، وهلع الجنود، وجهل الملغاشيين (وهم أفراد الطابور) العاجزين عن استخدام أسلحتهم، والموت البطولي للمقدم (أو جاك)،



□ نسيب بك الاطرش

وبسالة الدروز وصيحاتهم الغريبة... أدى كل ذلك إلى تحطيم القوة الفرنسية وتحويل التقهقر إلى كارثة. «ولم يعد القادة يعرفون رؤساء الفرق، ولم يعد الضباط يعرفون رجالهم ولا يتحدثون بلغاتهم، ولم يعد الرجال يعرفون ضباطهم ولا يستوعبون أوامرهم»[٢٣].

وكانت الخسائر باهظة، في الرجال والعتاد[٢٤].

إن اندحار طابور (ميشو)، الذي أعقب الفشل المهني الذي حل بطابور (نورمان) جعل من سلطان سيدا مطلقا «للجبل»، الخالي من الفرنسيين، وقائدا بلا منازع للثورة الدرزية. ولكن «يبدو أن هذا النجاح غير المنتظر قد أذهب، بل أفزع، في البداية، كثيرا من الدروز أكثر مما أثار حماستهم... لقد أرادوا ممارسة السياسة، والأعراب عن استيائهم، ولكنهم وجدوا أنفسهم، رغما عنهم، وبالصدفة تقريبا، أمام قطيعة مع فرنسا»[٢٥].

وفورا، بعد ٣ آب (أغسطس)، باشر النقيب (رينو) مفاوضات معهم. وكان الدروز يطالبون بالإضافة إلى العفو العام والشامل، بحاكم وطني منتخب من السكان، وباجتماع جمعية تأسيسية لوضع النظام الأساسي «للجبل».

ورفض وكلاء الانتداب هذا الشرط الأخير الذي بدا لهم كفيلا بإحباط سلطانهم السياسي، واختاروا الحرب، ناقضين بذلك هدنة كانوا قد طلبوها لدفن موتى ٣ آب (أغسطس).

وعادت المعارك. ولم يعد «الجبل»، بعد إخلائه من السكان غير المؤهلين لحمل السلاح الذين نقلوا إلى الأردن، الا معسكرا تاسعا، فيه يتم انتقاء المجاهدين باستمرار. وبقيت قوات سلطان، المكونة من ٢٠ إلى ٣٠ الف رجل، هادئة في «الجبل» الذي أمسى حرا بعد معركتي الكفر والمزرعة. وقد استحوذت على سلطان، خارج نطاق المواكب المتوحشة، إغراءات كثيرة وفرت له النصر. وكانت الإغراءات تأتيه من شعبه الذي هيجه نضال قصير ومجيد، ومن الدروز الذين كانوا يعيشون خارج «الجبل»، ومن دمشق المضطربة، ومن سوريا الوسطى بكاملها التي كانت تضج بوطنية حدت معركة ميسلون من انطلاقتها دون القضاء عليها.

والثورة، التي كانت درزية حتى الآن، أصبحت سورية. وتلك كانت المرحلة الثانية، الأطول والأعنف. وبعد أن انطلقت من أصول محلية وإدارية في الدرجة الأولى، اتجهت بغتة نحو صيغة وطنية تستمد أنصارها من الشعب، كما تستمدهم من المثقفين والطبقات المالكة... نحو نضال من أجل الاستقلال شبيه بأشكال النضال التي هزت وصدعت، هنا وهناك، خلال السنوات الأخيرة، الهيمنة الأوروبية في الشرق.

وانتشر السيل، بموجات مباغتة، خارج «الجبل»: في الشمال، عن طريق وادي العجم، وهو ممر ذو منحدرات زلقة، تمتد على طوله مجموعة متراصة من القرى الدرزية تصل إلى ضاحية دمشق؛ وفي الشمال الغربي، عن طريق السفح الغربي لجبل حرمون (جبل الشيخ) ووادي التيم حيث يرتبط عشرة آلاف درزي بمجموعات من نفس الطائفة تقيم في المنطقة الجنوبية الشرقية من لبنان (حاصبيا، وراشيا...). «لقد اتسعت الحركة بسرعة... والعصيان، إن لم يشمل كل السكان، فانه شمل على الأقل كل مساحة سوريا الجنوبية»[٢٦].

وخلال شهري آب وأيلول (أغسطس وسبتمبر)، لم تتوقف صفوف الثوار عن



□ عبد الغفار باشا الأطرش.

التضخم، جاذبة إليها الجبليين في حرمون، والفلاحين في السهل، والعوام في المدن، والطلاب الوافدين من دمشق أو من الجامعات الأوروبية.

وكانت دمشق هدف الثوار. ومنذ ١٤ آب (أغسطس)، هوجمت القرى المحيطة بها من الجنوب. وفي ٢٤ منه، وجه ١٥٠٠ رجل، دون نجاح، أول ضربة ازميل إلى المدينة. وتتابعت، بعد ذلك، الهجمات. وتعطلت المواصلات. وكانت سكة حديد الحجاز، ما بين دمشق ودرعا، على الحدود الفلسطينية، عرضة للهجمات المتواصلة.

وبعيدا إلى الغرب، وحتى القنيطرة، كانت الجماعات المسلحة تنمي نشاطها. وفي الشمال، داخل الحدود اللبنانية، كانت بعلبك، التي يقطن معظمها مسلمون شيعة، في هيجان كامل. وكذلك في الشوف حيث يعيش الدروز، على السفح الغربي من لبنان، وعلى بعد عدة كيلومترات من بيروت، فقد لوحظ وجود تحرك خطير. وكان ثوار «الجبل» على علاقة ثابتة بهذه الأوساط التي كانت تنتظر فرصة لتنتفض. وإلى الشرق من دمشق، كان البدو ينتظرون، جماعات جماعات، ساعة الاشتباك والنهب، بدلا من التوغل في الصحراء مع اقتراب فصل الشتاء. وكان عدد منهم يقاتل إلى جانب الدروز. وقد ظهروا عند



□ حمد الأطرش.



□ الجنرال ويغان.

أول هجوم على دمشق. وهكذا انفجرت الثورة، بعفوية وقوة، حول العاصمة، وفي كل مكان.

وخلال هذا الوقت، «اقتصرت التدابير العسكرية على حراسة الخط الحديدي، وقصف جبل الدروز بقنابل الطائرات، وإرسال الكتائب إلى قرى كان ينبغي معاقبتها لاستقبالها جماعات من الثوار، أو لاشتراكها في أعمالهم العدوانية»(٢٧).

وبقيت السويداء محاصرة من قبل الثوار. «واستطاعت الحامية أن تتمون بواسطة الطائرات، ولكنها تكبدت بعض الخسائر، فقد نجح الدروز في إطلاق عدد من القذائف على الثكنة التي تمركزت فيها الحامية، وذلك بواسطة المدافع التي استولوا عليها من الطابور الذي مني بالفشل في ٣ آب (أغسطس)»(٢٨).

ولم يفكروا في إنقاذها الا عند وصول النجدات المنتظرة. واحتلت قرية مسيفرة، الواقعة على طريق أسهل من طريق ازرع. وفي ١٤ أيلول (سبتمبر)، تسللت إلى «الجبل» كتيبة طليعية كبيرة. وفي ١٧ منه، ولدى مهاجمة قرية مسيفرة، حاول الدروز، عبثا، ورغم معركة دامية(٢٩)، ايقاف تقدم الكتيبة. وفي ٢٤ منه، وبعد معركة قاسية في تل ـــ حديد، انقذت أخيرا حامية السويداء. ولكن النقص في المياه، واقتحامات الدروز، وضرورة تجميع الجند حول دمشق، حتمت، بعد ثلاثة أيام، الجلاء عن السويداء، فعادت الكتيبة إلى قاعدتها في مسيفرة، وبقي «الجبل» غير محتل خلال الأشهر اللاحقة.

وتفجرت، في كل مكان من السهل تقريبا، بؤر عصيان لم تزدها خمس سنوات من الانتداب الا اشتعالا.

وفي غوطة(٣٠) دمشق، وفي الصحراء إلى الشرق، وفي الغرب، في وادي التيم وحرمون، وعلى امتداد المعابر الجبلية المتعرجة، حيث يتربص درزي خلف كل صخرة، وفي كل مكان... لم تلبث الثورة الهادرة، بعنف متصاعد، يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، أن تدفقت متجهة شطر الشمال لا تلقى أمامها الا قوى مبعثرة وواهنة وخائرة العزيمة.

وسقطت القرى والضواحي، خارج «الجبل»، بين أيدي الثوار.

وكانت دمشق تترقب، وهي تلهث أمام الأحداث المتسارعة. وباستثناء ستة وضعوا في الإقامة الجبرية، فقد غادر العاصمة رجال حزب



□ قوات الاحتلال الفرنسي في ساحة النجمة بدمشق.

الشعب، المطاردين، والذين أصبحوا مسؤولين عن التمرد، وانضموا إلى صفوف الثوار، حاملين اليهم قيادة سياسية ومعلومات استراتيجية كانت تنقصهم. وكان معظمهم من الضباط القدامى في الجيش التركي، أو من الطلاب القدامى في الجامعات الأوروبية.

وبين عشية وضحاها، طرأ تبديل على الثورة، لقد انتقل مركز قيادتها من «الجبل» إلى الغوطة.

الهوامش

(١) تقرير فرنسا إلى عصبة الامم للعام ١٩٢٥، ص ١٨.
(٢) المرجع السابق، ص ١٩.
(٣) نفس المرجع، ص ٢٠.
(٤) نفس المرجع، ص ٢٣. راجع، بهذا الصدد، منشورات الوفد السوري الفلسطيني إلى جنيف، وخصوصا الكراس الذي صدر بعنوان: **سوريا في عصبة الامم في عام ١٩٢٥**.
(٥) تقرير عام ١٩٢٥، المذكور، ص ٢٠.
(٦) تقرير النقيب رينو (Reynaud)، ذو الرقم ١٣٥، الذي استشهد به السيد فري (Ferry)، في مجلس النواب الفرنسي (المناقشات النيابية، عام ١٩٢٥، ص ٤٤٤١).
(٧) «وصلت لمقابلة الجنرال فقال لي قبل أن انبس بكلمة: «لقد جمعت، بطريقة جميلة، ثلاثة من دروزكم الذين شاهدتهم واقفين في المشى ينتظرون، وقلت لهم إنني سأرسلهم، إن لم يعودوا فورا إلى ديارهم، إلى تدمر (الإقامة الجبرية) حيث يقيم الزعيم المسيحي عقلة القطامي»... وفي ٤ أو ٥ تموز (يوليو)، تلقيت من نجيب باشا الحلبي، عميد السن للزعماء الدروز، رسالة مؤرخة في ٢٩ حزيران (يونيو). وفي هذه الرسالة أكد لي مشاعر الولاء التي يكنفها جميع الدروز لفرنسا، وانهم جميعا، باتفاق لا سابق له، يفضلون الموت على تحمل عودة (كاربييه)، ورجاني أن أتدخل للإبقاء على النقيب (رينو)، الذي تفاهموا معه وتعهدوا، من اجل ذلك، بالخضوع والوفاء لفرنسا...» [رسالة شخصية من الأمير فؤاد ارسلان إلى صديق من فرنسا، استشهد بها فري (Ferry)، في المرجع السابق، ص ٤٤٤٢].

(٨) فري (Ferry)، نفس المرجع.
(٩) (L'Echo de Paris)، في ١٩٢٥/٩/٢٩. وبالإضافة إلى تأكيد الجنرال (ساراي) نفسه [راجع رسالته إلى مندوبه في دمشق، التي ورد ذكرها في النص]، فان الشهادة اللاحقة للسيد (Coblentz) في كتابه «صمت ساراي» (Le Silence de Sarrail)، ص ٢٣٤، تؤكد، بصورة مطلقة، صحة الوقائع.
(١٠) فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤١.
(١١) تقرير عام ١٩٢٨، ص ٢٢.
(١٢) «كانت مهمة المقدم (تومي ــ مارتان) قمع الحركة، دون التعمق في أسبابها، والإعداد، قبل كل شيء، لعودة النقيب (كاربييه)» [فري (Ferry)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٣].
(١٣) «وكتب يقول: ليس هناك أدنى شك. فلو توجه النقيب (كاربييه) إلى السويداء لواجهنا:
١ ــ هجوما على سيارته في الطريق بين السويداء وازرع.
٢ ــ تمرد مدينة السويداء.
٣ ــ انتفاضة جبل الدروز.
وتلك حقيقة. وسأثبتها في التقرير» [فري (Ferry)، المرجع السابق].
(١٤) وهذا هو نص الأمر: «ارجوكم أن تستدعوا المشاغبين إلى دمشق، وبينهم حمد بك، ونسيب بك، ومتعب بك، وعبد الغفار، وسلطان الأطرش، بحجة تسلم مطالبهم. وعندئذ تقولون لهم إنني أعتبرهم المسؤولين عن كل فوضى واحتفظ بهم في الإقامة الجبرية، وفي مكان تعينه لي». الإمضاء: (ساراي) [ذكر ذلك الجنرال بورجوا (Bourgeois) في مجلس الشيوخ الفرنسي. المناقشات النيابية لعام ١٩٢٥، ص ١٧٣٥]. وقد رد المندوب دو لسليه ديه لوج (Deleslé des Loges) على الأمر برسالة مطولة، في ١٢ تموز (يوليو)، جاء فيها: «هذا تدبير لا يتخذ دون أن يكون هناك نوع من الاضطرابات الداخلية، وبعد الإصغاء إلى هؤلاء الأشخاص الذين اتوا يعرضون عليكم، برصانة بالغة، قضيتهم... الذين لا يطلبون الا شرح وجهة نظرهم أمام المفوض السامي، وعند الحاجة بحضور النقيب (كاربييه)، الذين يقولون لكم إنهم تعرضوا لمضايقات، ولكنهم ليسوا جبناء...» [الجنرال (بورجوا)، المرجع المذكور، ص ١٧٣٥].
(١٥) جلسة ١٩٢٥/١٢/٢٠.
(١٦) ويبدو أن ذلك كان رأي اللجنة الدائمة للانتدابات التي ورد في تقريرها إلى مجلس عصبة الأمم، بعد دورة روما (شباط (فبراير) ١٩٢٦)، ما يلي: «ويبدو من الواضح أن احد أسباب انتفاضة هؤلاء السكان يجب البحث عنه في تجاهل هؤلاء الذين مثلوا فيما بعد دولة الانتداب في جبل الدروز للظروف الخاصة التي حتمت إبرام اتفاق عام ١٩٢١. ويظهر أن أحدهم قد أثقل كاهل الجبليين... في جبل الدروز بسلطته القاسية للغاية، بدلاً من توفير الحكم الذاتي والحرية لهم، بعد الاعتراف لهم بهذا الامتياز. ان اللجنة قد تأثرت، بشكل خاص، بقصة الاستياء المتصاعد، والتحذيرات المتكررة والمتجاهلة، وعناد الجنرال (ساراي) المتفاقم أكثر فأكثر، والذي أدى، بعد الطرد القاسي لوفد درزي جديد، إلى اعتقال... وفد من الوجهاء استدعي (بحجة تسلم مطالبه)...».
(١٧) (L'Echo de Paris) في ١٩٢٥/٩/٢٩.
(١٨) وهو النظام الأساسي الذي نصت عليه المادة الأولى من «إعلان الانتداب» الصادر عن عصبة الأمم في ١٩٢٢/٧/٢٤ [راجع، بهذا الصدد، كتاب المؤلف: «**التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري**» منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٣٢ وما يليها].
(١٩) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤. والجنرال جيرو (Girod) يسرد تفاصيلها المأساوية في خطابه أمام المجلس النيابي [المناقشات النيابية. مجلس النواب. الجزء الخامس، ص ٤٥٠٣]. راجع كذلك (فري)، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥.
(٢٠) برقية الجنرال (ساراي) في ٢٥ تموز (يوليو)، في باريس (فري، المرجع المذكور، ص ٤٤٤٥).
(٢١) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٤.
(٢٢) حول تشكيل طابور (ميشو) وتنبؤات المقدم أوجاك (Aujac)، راجع (Ch. Desjardins) [مناقشات مجلس النواب لعام ١٩٢٥، الجزء الخامس، ص ٤٥٠٨ وما يليها]. وقد وصل تقرير (اوجاك) إلى الجنرال (ساراي) فأحاله على قيادة أركانه للدراسة والمشورة، ولكن التقرير لم يبلغها الا بعد فترة طويلة. ولعل هذا التأخر هو سبب الفشل في ٣ آب (أغسطس) [راجع (جيرو)، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٤] ويبدو أن أقرب المساعدين للجنرال قد خانوه [حسب رواية (Bonardi)، المرجع المذكور، ص ٨٥. راجع كذلك (Colbentz)، المرجع المذكور، ص ٢٤٧].
(٢٣) (Desjardins)، المرجع المذكور، ص ٤٥١١.
(٢٤) قتل ٢٨ ضابطا، وجرح ٢٨ ضابطا، وقتل ٦١٢ جنديا، من بينهم ١٢٢ فرنسيا [جيرو، المرجع المذكور، ص ٤٥٠٣]. وأعلن وزير الحرب (P.Painlevé)، فوق منصة مجلس الشيوخ، أن السوريين من أفراد الفرقة الأجنبية قد تسببوا، بفرارهم الهائم، في حدوث الهزيمة الفرنسية. ورد (Desjardins)، في مجلس النواب، على هذا التبرير بقوله: «إنني احتج، يا سيدي الوزير، على الحكم، البائس حقاً، الذي أصدرته عليهم من منصة مجلس الشيوخ، في اليوم الفائت، عندما قلت أن

هؤلاء الناس كانوا مدربين وراثيا على الخوف من الدرون، وكانت لديهم بالتالي موهبة خاصة في فن الهرولة. وإذا كان السوريون قد فروا في ذلك اليوم فلأنهم كانوا واحدا مقابل عشرة. وقد شعروا بدعم سيء، وبأنهم قد خذلوا، لأنهم كانوا يعرفون أن الجنرال كان في المقدمة، محميا، في سيارة مصفحة» [المناقشات النيابية، المرجع المذكور، ص ٤٥١١، وما يليها]. ان السوريين، الملتصقين بمدافعهم، والموضوعين في مواجهة خط النار، كانوا يتلقون جميع الطلقات من جانب أشقائهم في العرق. ولمساندتهم، كان الملغاشيون، وراءهم، ينبطحون كالمخبولين تحت رشقات النار. وعلى مسافة قريبة، كان تشتت الرؤساء. وتابع الخطيب (Desjardins) كلامه قائلا: «لقد نسيت، يا سيدي وزير الحرب، ما فعلوه في ساحات الوغى الفرنسية أثناء الحرب الكبرى». وسيذكره مجاهدو دمشق بذلك.

(٢٥) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٥.
(٢٦) تقرير عام ١٩٢٥، ص ٢٦.
(٢٧) التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٨.
(٢٨) المرجع السابق، ص ١٥.
(٢٩) ربما كانت معركة مسيفرة ـ إذا استثنينا كارثة طابور (ميشو) ـ الفصل الأكثر دموية من الثورة. والأرقام الرسمية تشير إلى سقوط ٤٧ قتيلا و ٨٣ جريحا من الجانب الفرنسي، و ٣٠٠ قتيل من الجانب الدرزي [التقرير المؤقت لعام ١٩٢٥، ص ١٩]. ولكن الأرقام المتعلقة بالخسائر الفرنسية هي أقل من الأرقام الحقيقية [راجع رواية شاهد عيان في مجلة (Le Phénixe) القاهرية، الصادرة في ١٩٢٦/١/٧، ص.٥٣].
(٣٠) الغوطة (ومعناها، بالعربية، العمق) هي حدائق تحيط بدمشق ويصعب التسلل إليها، استخدمها الثوار، لمدة عامين، كملجأ لهم ومركز لنشاطهم.

---

* دراسة نشرت في «المجلة التاريخية» (Revue Historique) في عددها الثاني لعام ١٩٨٢.



تصريحات وأقوال

■ علينا باستعمال القوة مع العرب، لأن معاملتهم بالطريقة الديمقراطية الأوروبية لا تتلاءم مع واقعهم الشرقي.. هناك العديد من مخيمات اللاجئين.. ماذا سيحدث إن أضفنا إليها مخيمن أو ثلاثة.

(مراسل ها آرتس ـ تسفي باريل ـ على لسان عضو مستوطنة حول القدس)

■ تستخدم إسرائيل المساعدات الاقتصادية الأمريكية في منح مستوطنيها في الضفة الغربية قروضاً طويلة الأجل ذات فوائد منخفضة.. [٣١٠٠ مليون دولار تطلبها إسرائيل كمساعدات للسنة المالية ١٩٨٣/ ١٩٨٤م].

(السناتور مارك هاتفيلد ـ رئيس لجنة المخصصات في مجلس الشيوخ الأمريكي)

■ إن الولايات المتحدة لا تريد حرمان إسرائيل ثمار انتصارها العسكري في لبنان.. هناك اختلافات بيننا ولكن يجب أن نناقشها بصفتنا حلفاء وألّا ندع الغضب والعواطف تطغى على أحكامنا..

(صموئيل لويس ـ السفير الأمريكي في إسرائيل)

■ ... بارك هنري كيسنجر والسيدة كير كباتريك الغزو الإسرائيلي على أساس أنه سيعمل على تعزيز المصالح الأمريكية على كافة الجبهات..

(جيمس ايكنز ـ السفير الأمريكي الأسبق في السعودية)

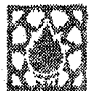
١٥ أيار ١٩٤٨



□ الحاج أمين الحسيني.

السفير د. حليم أبو عز الدين

ما زلت أذكر جيدا ذلك اليوم، لخمس وثلاثين سنة خلت. ١٥ أيار ١٩٤٨.
اليوم الذي انتظره العرب كثيرا، انتظروه ثلاثين عاما.
انتظروه ليكون يوم الانقاذ، ويوم التحرير،
يوم انقاذ فلسطين من براثن الصهيونية،
ويوم تحريرها من الانتداب البريطاني.
كان ذلك اليوم، في الواقع، يوم نشوة قومية، يوم كبرياء وشموخ.
وكان من المفروض أن يكون ذلك اليوم من أيام العرب المحجّلة، وأن يدخل التاريخ كيوم اليرموك، أو يوم حطين.
ولكن،
ولكن، لنعد إلى تاريخ ذلك اليوم.



في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، وقبل أن تصبح صاحبة القرار في فلسطين، أصدرت بريطانيا بيانا عن سياستها التي تزمع تنفيذها في فلسطين. وجاء ذلك في تصريح وجهه اللورد بلفور، وزير خارجيتها في ذلك الحين، إلى اللورد روتشيلد رئيس المجلس اليهودي البريطاني تضمن أن بريطانيا تنظر بعطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن لا يؤدي ذلك إلى الاضرار بالمواطنين غير اليهود في فلسطين، أو بالجاليات اليهودية المنتشرة في العالم.

صدر هذا التصريح في الوقت الذي لم تكن

فيه بريطانيا تملك السيادة على فلسطين. وعندما أوكلت عصبة الأمم، فيما بعد، إلى بريطانيا الانتداب على فلسطين، فإن ذلك التوكيل لم يشمل حق السيادة، بل اقتصر، قانونا، على حق الادارة. فالسيادة على فلسطين، وعلى سائر الدول التي وقعت تحت نظام الانتداب، كانت لسكان فلسطين، ولسكان سائر الدول التي قامت على أنقاض السلطنة العثمانية.

فلم يكن، إذن، بوسع بريطانيا، قانونا، أن تتصرف بفلسطين وبسكانها وبمصيرها، كما تريد.
ولكن بريطانيا، العظمى والجبارة في ذلك الحين، تمكنت، في مؤتمر الحلفاء في سان ريمو، من فرض انتدابها على فلسطين؛ كما تمكنت من فرض تصريح بلفور على صك الانتداب. وبات، من جراء ذلك، الانتداب البريطاني يعمل، خلال ثلاثين عاما، على تحقيق سياسة الوطن القومي اليهودي، وعلى فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية إليها.

وكانت سنوات الانتداب البريطاني الثلاثون على فلسطين سلسلة من الثورات العربية والاضرابات والاصطدامات، أعقبتها سلسلة من المؤتمرات واللجان الملكية والقرارات السياسية التي، في أكثريتها، لم يتم تنفيذها.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن أعدت بريطانيا فلسطين للعمل اليهودي، وأدخلت مئات الألوف من المهاجرين اليهود، وحققت بذلك أهداف سياستها، أعلنت، عام ١٩٤٧ أنها ستحمل القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، بعد أن صرح وزير خارجيتها ارنست بفين في مجلس العموم البريطاني «أن بريطانيا فشلت في تطبيق الانتداب لما احتواه من التزامات متعارضة».
وطلب الوفد البريطاني لدى الأمم المتحدة، في ٢ نيسان ١٩٤٧، تدوين «قضية فلسطين» على جدول أعمال الدورة الثالثة للجمعية العامة للأمم المتحدة، كما طلب دعوة الجمعية العامة في دورة خاصة، وبأقرب فرصة، من أجل تشكيل لجنة خاصة تعد لعرض الموضوع على الجمعية العامة في دورتها العادية.
ودعيت الجمعية العامة، في دورتها الخاصة الأولى، للاجتماع في ٢٨ نيسان ١٩٤٧.

وفي ٢٢ نيسان تقدمت سوريا ولبنان ومصر والعراق والمملكة العربية السعودية بطلب إضافة البند التالي على جدول أعمال الدورة الخاصة: «إنهاء الانتداب على فلسطين، وإعلان استقلالها». ولكن، لدى افتتاح الدورة الخاصة، وافقت اللجنة العامة للجمعية العامة على إدراج البند الذي تقدمت به بريطانيا، ورفضت إدراج البند الذي تقدمت به الدول العربية.

وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة تخضع، في ذلك الحين، للهيمنة الأميركية ــ البريطانية.
وفي ١٥ أيار ١٩٤٧ قررت هذه الدورة الخاصة تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في القضية الفلسطينية مؤلفة من استراليا، كندا، تشيكوسلوفاكيا، غواتيمالا، الهند، إيران، هولندا، يوغسلافيا، السويد، بيرو، ويوروغواي.

وتبين جليا من تشكيل هذه اللجنة ميلها إلى تحقيق الأطماع الصهيونية وتقسيم فلسطين.
وفعلا، وضعت هذه اللجنة تقريرا رفعته في ١٩٤٧/٨/٣١ إلى الجمعية العامة وحوى مشروعين: الأول اقترحته الأكثرية، ويقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وإقامة كيان خاص منفصل لمدينة القدس وجوارها تقوم على إدارته الأمم المتحدة، وجمع الكل في وحدة اقتصادية. والثاني اقترحته الأقلية، ويقضي بإنهاء الانتداب، وإقامة دولة فدرالية فلسطينية تضم العرب واليهود، على أن تكون القدس عاصمة الدولة الفدرالية التي يكون لها جنسية واحدة فلسطينية.
رفض العرب مشروع التقسيم، وطلبوا إحالة الموضوع إلى محكمة العدل الدولية، وطعنوا في حق الأمم المتحدة في تقسيم البلد، ولكن الضغوط الأميركية ــ الصهيونية أدت إلى تجاوز الطلب العربي.
وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين بأكثرية ٣٣ صوتا ضد ١٣ صوتا وامتناع ١٠.
كان قرار تقسيم فلسطين مؤذنا باحداث جسام سرعان ما انطلقت بمظاهرات وإضرابات، وتطورت إلى اضطرابات ومعارك دموية عنيفة كان

الفريقان تهيأوا لها، وإنما على درجات متفاوتة من الاعداد والتدريب والتسليح.

العرب استعدوا للقتال، ولكن بوسائل محدودة وقديمة. وتدريبهم كان في مجمله غير كاف، برغم ما أظهروه من البطولة والاقدام. إلا أن اليهود كانوا أكثر تدريبا وأحسن تسليحا. تدربوا في الجيش البريطاني، وفي التنظيمات العسكرية اليهودية. وتسليحهم كان أقوى وأحدث. فأكثر تسليح العرب كان من بقايا ثورة ١٩٣٦، وأحسنه من مخلفات الحرب العظمى الثانية في الصحراء الغربية، في الوقت الذي كان فيه اليهود يتسلحون من ثكنات القوات البريطانية ومن أوروبا الشرقية والغربية.

وسرعان ما تفاقم القتال بين العرب واليهود. وانضوى العرب الفلسطينيون في قوات الجهاد المقدس، كما هرعت قوات المتطوعين العرب من خارج فلسطين في جيش الانقاذ للمشاركة في الدفاع عن الحقوق العربية.

وبلغ من اشتداد المعارك أن لفتت لجنة فلسطين الخاصة، التي أقامتها الأمم المتحدة بقرار التقسيم، مجلس الأمن إلى اضطراب الحال في فلسطين.

وطلب ممثل الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، في ١٩٤٨/٣/١٩، وقف إجراءات التقسيم. كما طلب من مجلس الأمن الدعوة إلى عقد دورة خاصة جديدة للجمعية العامة لدرس الوضع واقتراح حل جديد. وفي ١٩٤٨/٤/١٦ اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورة خاصة ثانية حول فلسطين، وخيم على تلك الدورة جو من الشك حول إمكانية تقسيم فلسطين.

وعارض اليهود العدول عن التقسيم. وعينت الجمعية العامة في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ ــ عشية انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ــ وسيطا يكلف بالعمل على إيجاد تسوية سلمية لقضية فلسطين. وكان ذلك الوسيط هو الكونت فولك برنادوت.

انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين في منتصف ليل ١٤ ــ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وغادر ميناء حيفا من تبقى من رجال الادارة البريطانية والقوات البريطانية المسلحة، ودخلت، إذ ذاك، قوات عربية من مصر وسوريا والأردن ولبنان والعراق وفلسطين لحماية العرب الذين كان الارهاب الصهيوني قد أجلى بعضهم عن البلاد، ولاعادة الأمن والنظام إلى فلسطين.

وأعلن اليهود قيام الدولة اليهودية، التي سارعت كل من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي للاعتراف بها.

وتقدمت القوات العربية في فلسطين، تساندها، من الداخل، القوة العربية الفلسطينية وقوى المتطوعين العرب.

وكان وضع العرب العسكري حسنا، عندما بادر مجلس الأمن، في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨ إلى إقرار هدنة لمدة أربعة أسابيع.

تلك الأيام عشتها بفكري وقلبي وآمالي. عشتها في موقع المسؤولية في قلب الأحداث.

كنت إذ ذاك قائما بأعمال السفارة اللبنانية في القاهرة، وأمثل لبنان لدى جامعة الدول العربية.

هكذا عشتها، في ١٥ أيار ١٩٤٨، النشوة والكبرياء والأماني، التي تحدثت عنها في صدر هذا المقال.

وكانت القوات العربية تتقدم من أطراف فلسطين باتجاه القلب. الجيش اللبناني في الجليل الغربي والمالكية والناصرة. والجيش السوري في الجليل الشرقي وطبريا وسمخ والحمة. والجيش الأردني ومعه القوات العراقية في قلب فلسطين، في القدس، والرملة واللد والمثلث والخليل. والجيش المصري في النقب وبئر السبع باتجاه بيت لحم.

هناك كانت القوات العربية عندما أقر مجلس الأمن هدنة الأسابيع الأربعة.

كانت القوات العربية في مواقع متقدمة داخل الأراضي الفلسطينية، عندما باشر برنادوت، وسيط الأمم المتحدة لفلسطين، مهمة إقناع الأطراف المتقاتلة بقبول الهدنة ووقف الأعمال الحربية.

ومع أن القوات العربية كانت متقدمة داخل فلسطين إلا أنها لم تكن بعد قد استعادت المدن والمناطق التي كان اليهود قد استولوا عليها قبل ١٥ أيار.

لذلك كان الفلسطينيون وبعض الدول العربية رافضين للهدنة، كما كان بعض العرب قابلين بها.

وإنني أذكر تماما ذلك اليوم ــ يوم ٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ــ الذي دعيت فيه مع



□ معركة مشمار: القاوقجي يراقب الهجوم في مشمار.

زملائي ممثلي مصر وسوريا والأردن لمقابلة الكونت برنادوت في مقره في فندق شبرد القديم في القاهرة، حيث سلم إلى كل منا رسالة موجهة إلى حكومته، بعد أن كانت الحكومات العربية قبلت قرار مجلس الأمن القاضي بإعلان الهدنة لمدة أربعة أسابيع.

وكان من قدري أن أتسلم من برنادوت شروط الهدنة الموجهة إلى الحكومة اللبنانية، تلك الشروط التي حملها، في اليوم ذاته، أحد رجال السفارة إلى بيروت وسلمها إلى وزير الخارجية.

هذه الهدنة، الأولى، التي ارتأى كل من سوريا ولبنان رفضها — وأنا هنا أسجل للتاريخ — عادت جميع الدول العربية المحاربة وقبلت بها، بعد عدة اجتماعات، البعض قبلها طوعا، والبعض الآخر كرها.

هذه الهدنة الأولى كانت بداية النهاية، فبعد أن كانت القوات العربية في مواقع عسكرية متقدمة وسليمة، وكانت إمكاناتها العسكرية عندئذ — أي قبل الهدنة — أوفر من إمكانات اليهود؛ جاءت الهدنة وأتاحت لليهود، خلال أربعة أسابيع، أن يتسلحوا من الولايات المتحدة أو من تشيكوسلوفاكيا، ومن أوروبا الغربية، في الوقت الذي لم يتمكن فيه العرب خلالها من تقوية طاقاتهم الحربية، وكانت النتيجة قوة لليهود وضعفا للعرب.

وخلال تلك الأسابيع الأربعة من الهدنة، وبينما كان اليهود يستقوون ويتسلحون، تقدم برنادوت بـ «أفكار» اقترح فيها تعديلات إقليمية



□ جلوسا من اليمين: المجاهد كامل عريقات، المجاهد الكبير عبد القادر الحسيني والمجاهد قاسم الريماوي.

على قرار التقسيم الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩.
وانطوت «أفكار» الوسيط على البنود التالية:

١ ــ ضم النقب ــ كله أو جزء منه ــ إلى الاقليم العربي (بعد أن كان قرار التقسيم ألحقه بالقسم اليهودي).

٢ ــ ضم الجليل الغربي ــ كله أو جزء منه ــ إلى الاقليم اليهودي (بعد أن كان قرار التقسيم ألحقه بالقسم العربي).

٣ ــ ضم مدينة القدس إلى الاقليم العربي، مع منح الطائفة اليهودية حق الاستقلال بشؤونها البلدية؛ ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة.

٤ ــ النظر في نظام مدينة يافا (وكانت ستبقى عربية).
٥ ــ إنشاء ميناء حر في مدينة حيفا تدخل فيه معامل تكرير البترول ومصباته.
٦ ــ إنشاء مطار في اللد.

هذه «الأفكار» الحاملة بعض التلطيف للتقسيم لم يتح للفرقاء دراستها بجدية، إذ أن القتال لم يلبث أن انفجر إثر انتهاء الهدنة الأولى.

ففي أوائل تموز (يوليو) ١٩٤٨، وقبل موعد انتهاء فترة الهدنة في ٩ منه، سأل برنادوت الدول ذات العلاقة عما إذا كانت ستستأنف القتال بعد انقضاء أجل الهدنة.

وقد أجابت الدول العربية المقاتلة، في ٧ تموز، أن أوضاع فلسطين، وعدم احترام اليهود لشروط الهدنة، واستمرار تدفق اللاجئين العرب، ورفض اليهود الاندماج في دولة فلسطينية موحدة، كل ذلك «يحتم على الدول العربية الا تستمر في إيقاف القتال على الشرائط الحالية، وأن تتخذ التدابير الكفيلة بوقف هذا العدوان، على أن ذلك لا يغلق الباب بوجه الجهود التي يبذلها الوسيط، ولا في وجه المقترحات التي يتقدم بها بتلك الصفة»[1].



□ كونت فولك برنادوت.
اغتاله الاسرائيليون في ١٧ ايلول ١٩٤٨.

في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٤٨، استؤنف القتال بضراوة. وكان اليهود قد أكملوا استعداداتهم، واستحصلوا على ما كانوا يحتاجون إليه من سلاح وعتاد.

والواقع أن تلك الهدنة الأولى ما فرضت على العرب إلا لاتاحة الفرصة لليهود لاكمال تسلحهم.

فحصلوا على السلاح الثقيل من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا، وحصلوا على طائرات «القلاع الطائرة» من الولايات المتحدة الأميركية مع طياريها، كما تدفق عليهم مقاتلون يهود محترفون من أوروبا ومن أميركا. وشعرنا، منذ عودة القتال في ١٠ تموز، بتغير مجرى الحرب. وتقدم اليهود وتجاوزوا حدود التقسيم، واستولوا على الجليل الغربي، وعلى اللد والرملة، وعلى جزء من المثلث العربي في وسط فلسطين.

وظهر تفوق اليهود العسكري. وفرض مجلس الأمن هدنة جديدة بدأ مفعولها في ١٨ تموز (يوليو). وكانت هدنة غير مقيدة بزمن.

ولكن اليهود استغلوا قوتهم المستحدثة وخرقوا الهدنة، واستولوا على أراض جديدة. وقاموا، في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) بهجوم على الجهة الجنوبية التي كان يحميها المصريون، واستولوا على بئر السبع وبيت جبرين والنقب.

وكانوا قد قاموا بهجوم، في ٣١ تشرين الأول على الجبهة اللبنانية، واحتلوا خمس عشرة قرية في جنوبي لبنان.

وعادوا واحتلوا، في جنوبي فلسطين، العوجة، وساروا في اتجاه خليج العقبة، واحتلوا قرية «أم الرشاش» التي أصبحت الآن «ايلات» احتلوها بعد إعلان الهدنة ووقف القتال.

ووضعت الحرب الفلسطينية الأولى أوزارها. وسعت الأمم المتحدة، ممثلة بنائب الوسيط الدولي، رالف بانش ــ بعد أن كانت عصابات يهودية اغتالت الوسيط فولك برنادوت في القدس ــ إلى عقد اتفاقات هدنة بين الدول العربية المقاتلة وإسرائيل. وتم عقد تلك الاتفاقات وفقا للتسلسل التاريخي التالي: الاتفاقية الأولى كانت مع مصر، وتلتها الاتفاقيات مع لبنان، ثم مع الأردن، ثم أخيرا مع سوريا.

وهكذا خسر العرب الحرب الفلسطينية الأولى، وخسروا معها فلسطين.

وتحولت النشوة القومية إلى نكبة قومية.

وأعقبت تلك النكبة نكبات، وقد لا تكون آخرها نكبة لبنان.

واليوم، ونحن في ١٥ أيار ١٩٨٣، أي بعد خمس وثلاثين سنة من تلك الأحداث، نتساءل: أين نحن من تلك النكبة، بل من النكبات المتعاقبة؟ هل استفدنا منها؟

هل استوعبنا دروسها؟

هل نحن اليوم في وضع أفضل؟

للقارىء أن يساهم بالاجابة على هذه الأسئلة!

الهوامش

(١) «تلك الايام: مذكرات وذكريات»، صادر عن دار الآفاق الجديدة، بيروت، صفحة ٣٠٨

أقدم محكمة في العالم قوانينها عربية

د. رياض العالي





□ أوحت محكمة بلانسيا إلى الفنانين بأعمال رائعة، والفنان «فرانديز» خلد هذه العدالة الشعبية في لوحة شهيرة لا تزال حتى يومنا هذا معلقة في «قصر الجنرالات» في بلانسيا.



بلنسية الخميس، الساعة تعلن الثانية عشرة ظهرا: وثمانية رجال ارتدوا ابرادا سوداء، يتقدمون من بوابة الرسل في الكاتدرائية. فجأة، يصمت الجمهور، ويزحم بعضهم بعضا في حركة إجلال، ليفسحوا للموكب حتى يمر ويجلس على المقاعد الجلدية الثمانية، قرب الباب. وقد افتتحت جلسة محكمة المياه في «فيغا» بلنسية، حين دقت الثانية عشرة، تماما. هذا الحدث، يتكرر كل خميس، منذ أكثر من ألف عام.

ينتسب هؤلاء الثمانية، إلى أقدم محكمة في أوروبا، بل، أغرب محكمة في العالم، دون ريب. ليس بين هؤلاء الثمانية قاض واحد. فهم مجرد فلاحين من سهل بلنسية المرع، ولكنهم ينعمون بسلطة مطلقة وتاريخية: سلطة الريّ. هم حراس ثماني سواق تخصب سهل بلنسية، والمشرفون على توزيع المياه العادل، بين الفلاحين، ويفضون النزاعات بين مالكي الأراضي.

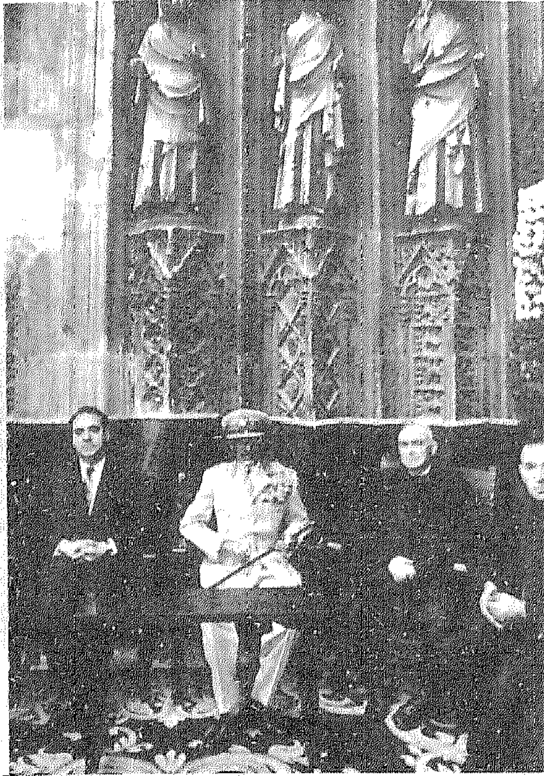
وإذا كانت بلنسية اغتنت من زراعتها، فإن أرضها تكاد تكون مجردة من الماء. فالمطر يسقط خلال خمسة وأربعين يوما في السنة، فحسب، وثمة نهر توريا، الذي لا يجري في مجراه إلا خيط ضئيل من المياه، مع ذلك، ورغم هذه الشروط غير الملائمة، فإن شجر البرتقال ينحني تحت ثقل ثماره، وغير غريب أن تغل ثلاثة مواسم أو أربعة في العام. وإذا كانت خبرة المزارعين تسهم في هذا النجاح الواسع، فإن إدارة الريّ الرائعة قد مهدت لهذا الوفر في الغلال.

لابدع أن تكون هذه المياه الغالية سببا في خلافات بين المزارعين. حجر الأساس في النظام: أن المحكمة، وهؤلاء القضاة الثمانية، وهم أنفسهم من الفلاحين، ينتخبهم زملاؤهم. القاعدة الأولى في هذه الادارة: أن الماء للكل ولكل واحد، لا فرديا وإنما جماعيا. ولا تنفصل الأرض عن حقها في الري. يحسب هذا الحق بالتناسب مع

مساحة الأرض المزروعة. القاعدة الثانية: استعمال الماء. إذ تعطى إشارة فتح قناة ريّ الحقول وإغلاقها، من جرس كاتدرائية بلنسية. خارج هذه الأوقات يمنع منعا باتا إجراء المياه، وكل مخالفة تحال على المحكمة. فإذا تحقق مزارع من خطأ جاره، وجب عليه أن يخبر حارس القناة. في الخميس التالي تدرس المحكمة القضية، وبعد التداول تحكم على المخالف. لقد اختبرت هذه الصيغة التعاونية المائية منذ عشرة قرون، فأتاحت الحفاظ على النظام، ونمو السهل «الهويرتا».

عكف عدة مؤرخين على أصل مثل هذه المؤسسة. وظلوا زمنا طويلا ينسبونها إلى الاستعمال الروماني. ولكنهم، منذ زمن يسير، اتفقوا جميعا على أصلها العربي. وقد أكد هذه النظرية، فيسانت جينر بوارا، المساعد القضائي في المحكمة ومؤسس جمعية عالمية لحقوق الريّ. فمنذ أكثر من عشرين سنة، وهو يجمع كل المؤلفات المتصلة، من قريب أو بعيد بالمحكمة. ومكتبه القائم على بعد خطوتين من الكاتدرائية، يفيض بكنوز أجيال الباحثين المتراكمة. لقد كرس هذا السبعيني النشيط حياته لتاريخ بلنسية ومحكمتها. وقد كشف بلغة فرنسية سليمة، وباعتزاز، أسراره فقال:

— يمكن أن يفسر تاريخ المحكمة بتاريخ اسبانيا. وإن تنظيم الري في بلنسية، إرث من الشعب العربي. ولا بد أن نتذكر، مع ذلك، أن الرومان من أنشؤوا شبكة الأقنية، منذ ألفي عام. وما تزال أقسام من الأقنية موجودة في شمالي المدينة. وقد اكتشف الجيولوجيون، حديثا، خمسة «سكور Tabutos» رومانية كانت تستخدم في قطع المياه. أما المحكمة، فنعلم اليوم علم ثقة أن خليفتي قرطبة، عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني، من أسسا المحكمة، عام ٩٦٠. وحين استعاد جاك الأول، عام ١٢٣٨، بلنسية من المسلمين، أقر بقاء المحكمة. لقد قرر الحفاظ على القانون العربي ودونه في «أوامره الملكية» المشهورة. ولو لم نحصل على هذا الدليل، لكفتنا ثلاثة تفاصيل: منها الاجتماع على باب الكاتدرائية. ففي فترة حرب الاستعادة، دمر الاسبان الجامع ليبنوا مكانه كاتدرائية. وكان



□ هيلا سلاسي امبراطور الحبشة يشهد إحدى جلسات المحكمة.

العديد من الفلاحين عربا. ولما كانوا غير معمدين، فلم يكن يسمح لهم بدخولها. ومن أجل محاكمتهم، وقد بقي منهم عدد كبير في بلنسية، كان لا بد من «إخراج» المحكمة. تفصيل آخر، هو أن المحكمة لم تكن تعقد قبل الظهر. **ويجب ان نعلم ان النهار في الديانة المحمدية. كما هي الحال في عدة اديان اخرى، لا يبدا منتصف الليل وإنما حين تبلغ الشمس السمت.** التفصيل الثالث: يوم الاجتماع. فالخميس في روزنامة العرب، يشبه السبت لدينا. لقد ترك لنا العرب مؤسسة عظيمة، فهي سريعة، اقتصادية، وفعالة. ومنذ ذلك الحين، حاول الكثيرون اقتباسها، ولكني لا أدري لِمَ فشلت كل المحاولات.

الخميس التالي حضرت جلسة المحكمة. منذ الثانية عشرة، تجمع جمهور غفير في ساحة العذراء التي تحيط بالكنيسة. وكان خليطا من سائحين، وفلاحين قدموا من السهل. ذلك أن جلسة المحكمة مناسبة للقاء. وكانت الفيضانات الفظيعة قد أتلفت حديثا قسما كبيرا من



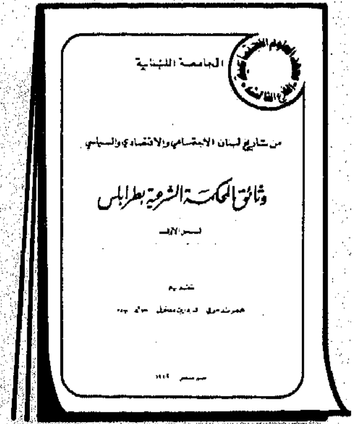
□ المحكمة، والجمهور، والمتهم ماثل امام القضاة.

المزروعات، لذلك كانت موضوع المناقشات. كان كل امرىء يقدر الخسائر، وكان القضاة الذين يعرفهم كل السهل، يناقشون. وبين الحين والحين كانوا يلقون نظرة سريعة على ساعاتهم، فحين تدق الثانية عشرة، يجب عليهم أن يحتلوا أماكنهم تحت الباب. يخرج الحاجب المقاعد الجلدية الثقيلة التي تعود إلى القرن السابع عشر، واحدا واحدا، وقد حفرت عليها أسماء الأقنية الثماني.

الثانية عشرة، يدخل الرجال الثمانية، بوجوههم المتجهمة، يتقدمهم الحاجب، حلقة المداولات الصغيرة. يطلب الحاجب الاذن بالبدء، فإذا أذن له، صاح بصوت قوي معلنا على الجمهور: «الاتهامات المتعلقة بالساقية كذا...». ثم يتلو أسماء السواقي الباقية. يسرع إثر ندائه المتَّهمون والمتّهمون. فإذا مثل الجميع أمام المحكمة، تبدأ المحاكمة. وتجري المداولات باللغة البلنسية. لا يدون شيء، لا الشكاوى ولا الحكم. ولا حاجة لمحام، فالمتهم يدافع عن نفسه شخصيا. وإذا شاء، استدعى شهودا، أو طلب تحقيقا، ولكن جرت العادة أن يمثل المتهم وحده أمام قضاته. يوجه الرئيس وأعضاء المحكمة الأسئلة الضرورية للحصول على أفضل المعلومات عن القضية، ودون شكليات، وبحضور المعنيين، تتداول المحكمة وتصدر الحكم. وحتى يتفادى أي انقسام، لا يسهم القاضي المعني بالقناة في المداولة. فإذا تقررت إدانة المتهم، لفظ الرئيس الكلمات المعهودة: «بناء على القوانين المرعية، قررت المحكمة أن تصلح الأعطال التي سببتها». وإذا استعيض عن ذلك بغرامة، فإنها تفسر بـ (Illures) أي، بليرات قروسطية. وللمحكوم أن يحولها إلى بزيتا.

خلال ألف عام، ليس ثمة مثل واحد، على متهم حاول التخلص من الغرامة، أو قدم قسما من أرضه، إذا أدين بتصليح الأعطال. كان يعلم كم يكلفه أن يعرض قضيته على محكمة أخرى. ولم يجرب أي مزارع أن يجادل في سلطة القضاة. فهم ينتسبون إلى مجتمعه نفسه، وهم مرتبطون بروابط التقدير والثقة المتبادلة.

●



نصوص مختارة من سجلّات المحكمة الشرعيّة بطرابلس

اختارها: د. عمر عبد السلام تدمري

والتي تمتد حدودها الساحلية من اللاذقية شمالا، حتى جونية، قرب بيروت، جنوبا. وتمتدّ حدودها الداخلية لتشمل قلاع الدعوة، ونواحي صافيتا شمالا، حتى جبال الجرد والعاقورة جنوبا، مرورا بإقليم صافيتا، والبقيعة، والشعرا، والهرمل، وعكار، والضّنّيّة، والزاوية، والجبّة، والكورة، والبترون، وجُبَيل. ولا يَخْفَى ما لهذه السجلّات من قيمة علميّة في توضيح المسار الحضاري لتاريخ طرابلس وإيالتها في العصر العثماني.

وتغطّي السجلّات حقبة زمنيّة تمتدّ من بُعَيْد النصف الثاني من القرن السابع عشر بقليل، وبالتحديد من سنة ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م. حتى الآن. ويزيد عدد السجلّات على المائة، بحيث أن السجلّ الواحد لا يقتصر على قضايا سنة واحدة فقط، بل قد يحتوي على وقائع سنتين او اكثر. كما أنّ كلّ سجلّ يتألّف في المتوسّط من نحو (٣٠٠) ثلاثمائة صفحة من القطع الطويل، بمعدّل (٤٠ سم). للورقة الواحدة. والسجلّ بدوره يشتمل على نحو (٥٠٠) خمسمائة قضيّة في المعدّل. وهذه القضايا تختلف وتتنوّع، وتطول وتقصر، بحسب موضوعها، وهي تندرج تحت اكثر من مائة عنوان، مثل:

قضّية بيع وشراء، قضيّة دعوى، قضيّة التزام، قضيّة احتكار، إجارة، مقاسمة، فرمان (مرسوم سلطاني شريف)، بيورلدي (مكاتبة ديوانية رسمية)، فراغ وظيفة، تقرير في وظيفة، تنصيب مشيخة، إقرار أصناف الحِرَف، نفقة، وصيّة، عِتْق، ترميم، بناء، وَقْف، تَوْلِيَة، إثبات، كشْف، وكالة، صُلْح، إبراء، منْع، حَجْر، إخبار، إلزام، تنفيذ وصيّة، مُصَادَقَة، مَواجِب قلعة وأبراج، مقاطعة، تقييد بالطلب، مكاتبات رسميّة، تحرير تركة، دفتر متروكات، إحصاء الحارات، البوّابات، الأفران، الخانات، القناقات (الفنادق)، الطواحين، أسعار الخُضْرَاوات والبُقُول، كفالة، تمسُّك، تعهُّد، نقل، قرض، نسب، تقسيط، أمر شريف، فتوى، طلاق.. إلخ.

وهذه العناوين العامّة يتفرّع عنها مئات العناوين الأخرى، فقضيّة البيع او الشراء، مثلا، يتفرّع عنها نوع المبيع او المُشْتَرَى، مثل : دار، أو حانوت، أو طبقة، او بستان، أو أرض، أو حمّام، أو طاحون، او شجر، أو قماش، أو صابون، وغير ذلك مما يُباع ويُشترى.

وقضيّة الدعوى يندرج تحتها عشرات العناوين بحسب أنواع الدعاوى، ومثل ذلك ينسحب على جميع العناوين الأخرى.

وهذه المجموعة الهائلة من عناوين الموضوعات والقضايا بحاجة ماسّة إلى فهرستها وتصنيفها فهرسة وتصنيفا علميا وأمينا. وحتى يستقيم هذا العمل ويؤدّي المحصّلة المرجوّة منه، والتي تيسّر للباحثين سُبُل البحث والدراسة، يقتضي وضع فهرس تفصيلي يضاف إلى الفهرس العام، يختص بالأماكن والمواقع والبلدان، إذ انّ المادّة المدوّنة في السجلّات

تحتفظ المحكمة الشرعية في طرابلس بكمية ضخمة من السجلات الرسمية ذات القيمة التاريخية والتراثية والوثائقية التي لا تقدر بثمن، لغزارة المواد والمعارف الانسانية والمعلومات والقضايا التي تشتمل عليها، والتي يمكن أن تقدم معينا ثرا من المعلومات التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والتجارية، والاجتماعية، والعمرانية، والثقافية، والدينية.. الموثقة والرسمية — خلال حقبة طويلة من العصر العثماني —، ليس عن مدينة طرابلس فحسب، بل عن معظم ساحل بلاد الشام، باعتبار أن طرابلس هي عاصمة الولاية العثمانية على هذا الساحل.

لا يقتصر نطاقها على حدود مدينة طرابلس وحاراتها وأسواقها فحسب، بل يشمل كل ولاية طرابلس التي أشرنا إلى نطاقها الجغرافي، وأحيانا كثيرة تتعدّى بعضُ القضايا الحدودَ الاقليمية لبلاد الشام، فنرى ملامح من العلاقات مع فلسطين ومصر واسطنبول، وحتى مع الافرنج الأوروبيين، سواء عن طريق القناصل المقيمين في المدن الساحلية، أو عن طريق القراصنة في البحر المتوسّط.

والفهرس التفصيلي يُراد به أن يكون كشّافا سريعا للأمكنة، وهذا له اهميّته القصوى لدى الباحثين، إذ أن سجلّات المحكمة في طرابلس هي سجلّات لكل مدن وقرى الولاية، ولكل رعاياها على مختلف طوائفهم ومذاهبهم، من مسلمين، ونصارى، ويهود، وأجانب من غير العرب.

وينبغي أن تُتَّخَذَ الخطوات التالية قبل الفهرسة:

١ — ترقيم السجلّات.
٢ — ترقيم صفحات السجلّات.
٣ — ترقيم القضايا في كل سجلّ.
٤ — ترقيم أسطر الصفحات.

امّا الملحوظة التي يجدر أن نسوقها هنا فهي انّ المرء يعتقد لأول وَهْلة أنّ سجلّات المحكمة الشرعية تقتصر على قضايا الزواج والطلاق وما يتبعهما فقط، ومن يتصفح السجلّات سيُفاجَأ بأنّها لا تتناول أيّ قضيّة لعقد زواج على الاطلاق، ويبدو أنّ معاملات الزواج كانت تُقَيَّد في أوراق خاصّة يحتفظ بها صاحب العلاقة دون ان تُحفظ صورتها في ديوان المحكمة، وهذا يؤكدّه «ابن محاسن الدمشقي» المتوفّى سنة ١٠٥٣هـ والذي قام برحلة إلى طرابلسَ في أوائل سنة ١٠٤٨هـ حيث ترك معلومة مهمّة عن محكمتها، قال فيها ما نصّه:

«.. وقد رأيت لهم في محكمتهم اختراعات عجيبة وأحوالا غريبة، منها، أنّ الرجل إذا أراد ان يتزوّج، فيأتي إليهم، فيكتبوا في صدر ورقة بياض: أَذِنَ مولانا — بعد أوصاف تحضرهم باردة، وقيود غير لازمة زائدة — القاضي بمدينة طرابلوس، لفلان الفلاني — ويسمُّون رجلا يعقد العقد، إمّا من العلماء أو من الجُهَلاء — بأن يعقد عقد فلانة على فلان من غير مانع شرعي. ويجعل القاضي إمضاءه في أعلا الورقة، ويدفعونها لمن يريد أن يعقد العقد. ويقبض القاضي على ذلك ما صدر عليه الوعد من غير تسجيل لذلك، ولا العلم بتفصيل ما هنالك. ومنها انّ غالب ما يصدر عندهم يكتبونه من غير تسجيل، فيقضي ذلك إلى ضياع حقوق الناس فحسبنا الله وَنِعْمَ الوَكِيل»(١).

* * *

وقد اخترت نشر النصوص التالية في هذه الحلقة، إمّا لطرافتها، وإمّا لاهميّتها. واودّ أن انوّه بالنصّ الأول، لما يُسْتَخْلَصُ منه من مفاهيم حضارية، ومؤشّرات لها دلالاتها العميقة، كانت معروفة لأجدادنا وطبّقوها قبل

مئات السنين، وكان يُظَنُّ أن تلك المفاهيم هي وليدة الحضارة الغربية الحديثة.

ولنقرأ النصّ بحروفه:

— (١) —

قضيّة إخبار

«سبب تحريرها وموجب تسطيرها، هو أنّه حضر بالمجلس المشار إليه، كلٌّ من: الحاج مصطفى بن علي، والحاج حجازي ابن حسين، والحاج حجازي بن عبد الرحمن ابن رافي البخّور، والحاج علي ابن كسكس، القيّاسة[٢]، كانوا صُحبة القيّم حسن بن أبي زلعوم، حين جرى في شهر حزيران من طرابلس إلى الشجرة القايمة بالقرب من تلّ خليفة[٣]، من طلوع الفجر، وعاد دخلها قبل العصر بنصف ساعة، وعلى كتفه مشعل يتوقّد، معلّقٌ عليه ثلاثة وثلاثون رطلا مصريا[٤]، وناصر الدين بن الدالي، الأمين كان عليه في ذلك، وفخر السادات السيد علي البابا ابن السيد جمال، وشاطر باشي صاحب الدولة والسعادة حضرة محمد باشا والي طرابلس، دام إقباله، والمقدّم شاهين المشعلجي باشي عند صاحب الدولة المشار إليه، والمقدّم علي بن بيده مقدّم العتّالين، والحاج منصور بن محمد مقدّم السُعاة بطرابلس، وأخبروا على طريق الشهادة جمعا وفُرادى، بأنّهم يعرفون جميع من تقدّم من المجرية[٥] الذين جروا من قَبْل حسن المزبور إلى الشجرة المرقومة، المشتهرين عند أهل هذا الفنّ بالشطارة، منهم الأستاذ قيّم مصر والشام المسمّى بالدبّور، ووالد القيّم حسن المزبور الشهير بأبي زلعوم، والقيّم قينين، والحاج محمد بن المكش، والمعلّم أحمد بن جميع، المعرفة الشرعية، وأنّ القيّم حسن بن أبي زلعوم قد فاق جميعهم بسبب أنّه غطّا[٦] عليهم، لكونه جرى إلى الشجرة من طلوع الفجر وعاد إلى البلدة ودخلها قبل العصر بنصف ساعة، وما أحد من الذي جرى قبله بلغ هذه الصناعة، ولا دخل إلى البلد بعد العصر بساعة، وأنّه رجح على المجرّية الذين سلفوا بقوّته وجرْيه الخاطف، والسلام. سيما وقد شهد له بالفضل في ذلك جميع أبناء طرابلس من الخاصّ والعامّ، الاخبار الشرعي. فلمّا أخبروا بذلك كذلك، التمس القيّم حسن المزبور من الحاكم الشرعي المشار إليه[٧]، أن يسطّر له بذلك صكا شرعيا ليكون بيده شاهدا في المآل عند الاحتياج لدى الاحتجاج.

فسُطّر بالطلب والسؤآل، في اليوم الثامن والعشرين من شهر جُمادى الأولى لسنة ثمان وثمانين وألف[٨].

شهود الحال

مولانا الشيخ محمد الكاتب زيد فضله	مولانا عبد الرحمن جلبي الكاتب	كاتب أصله مولانا الشيخ مصطفى زيد فضله	محمد جلبي الترجمان
حسين بن بلوكباشي	محمد بن منصور المحضر	وغيرهم من الحاضرين[٩]	

ونحن نترك هذا النصّ برسم أبطال الماراثون والألعاب الأليمبية!! وبرسم الهيئات المختصّة بتسجيل الأرقام القياسية!.

— (٢) —

قضيّة نصب جاويش العلما

حمدا لك يا من جعل العلم لسبيل الخير منارا، وجعل أهله هُداة وعلى الخير أنصارا. نحمدك بالمحامد التي ترضاها على نِعَم منك مُبْتَداها وإليك مُنتهاها. ونصلّي ونسلّم على نبيّك وحبيبك الذي جعلته إنسان عين الوجود، ومعدن الفضل والكرم والجود، وعلى آله وأصحابه المُوفين بالعهود.

وبعد،

فلما كان العلم أشرف المناصب، دنيا

وأخرى، وأهله أشرف العالم سرا وجهرا، وكانت الطايفة الموسومين به من أعظم الطوايف قدْرا، وكانوا أَوْلَى الناس بانتظام الأمور ورعاية الآداب، إقتداء بقوله صلى الله عليه وسلم: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»، فكان ذلك أصلا قويّا في انتظام الأمور عند ذوي الكمال والأحساب.

حضر قدوة العلماء المحقّقين، زبدة الأفاضل المدقّقين، مولانا الشيخ علي أفندي مفتي الديار الطرابلسية[١٠]، لا زال سابقا إلى الفضايل السَّنِيّة، وفخر الأفاضل والخُطَبا الواعظين مولانا الشيخ مصطفى الخطيب[١١] بالجامع الكبير المنصوري[١٢]، ورديفه فخر الفضلاء والأكابر مولانا فضل الله جلبي الخطيب الثاني بالجامع المزبور، وفخر الأفاضل المدرّسين مولانا الشيخ عبد القادر[١٣] الخطيب بجامع البرطاسية[١٤]، وفخر الخُطَبا مولانا الشيخ مصطفى الخطيب بجامع الأويسيّة، وفخر الأفاضل المتورّعين،

سليل العلماء المحقّقين مولانا الشيخ أبي حامد[١٥] الخطيب بجامع العطار[١٦]، زيدت فضايلهم، وباقي زمرة العلماء والخطباء والأيّمة بمدينة طرابلس الشام، وسألوا من المولى الحاكم الشرعي المشرّف هذا الكتاب بتوقيعه المُسْتطاب، أن ينصّب عليهم جاويشا يكون رئيسا إليهم لاحضارهم إذا اقتضى الأمر لاحضارهم لمجلس الشرع الشريف، أو إلى الديوان المنيف، أو لأيّ محفل كان، واقتضى حضورهم أو حضور بعضهم، واختار خواصيهم لهذه الوظيفة حامل هذا الكتاب الشرعي فخر الصُلَحاء والطلبة، الشاب الفاضل والنجيب الكامل الشيخ رجب ابن الشيخ يوسف[١٧].

فأجابهم المولى المومى إليه إلى سؤالهم، ونَصَّب الشيخ رجب المذكور جاويشا على جميع العلما والخطبا والأيمّة وزمرتهم المزبورة بطرابلس، وأذِن له بمباشرة هذه الخدمة، مراعيا شروط آدابها مع كل إنسان بما يليق به على كلٍّ منهم أن يعامله بالبِرّ والاحسان بما يليق بمقام كل منهم.

نصّيا وإذنا شرعيين مقبولَيْن من الشيخ رجب المزبور القبول الشرعي.

وجرى ذلك وحُرّر في أواخر شهر جمادى الآخرة من شهور سنة تسع وسبعين وألف[١٨].

شهود الحال

فخر المدرسين والنواب المتشرعين مولانا جلال الدين أفندي زيد فضله

مولانا صنع الله أفندي زيد فضله

مولانا الشيخ أحمد العكاري كاتب أصله زيد فضله

مولانا الشيخ مصطفى زيد فضله

رجب آغا محضر باشي

مولانا الشيخ محمد لحاج زاده

مولانا عبد الرحمن جلبي مغربي زاده

مولانا الشيخ محمد بن الشيخ ناصر الدين

مولانا الحاج عبد الله جلبي زيد فضله

وغيرهم من الحاضرين[١٩]

صورة أمر حكمداري في حادثة الكواتلة

بمطالعة حضرتكم صورتي قايمة الباب العالي والفرمان السامي الخديوي المشروحين أعلاه، يصير معلومكم كيفية صدور الأمر العالي في اكتسا بطاركة وأساقفة الروم الكاثوليك، إسكوفة وعليها غطا أسود وألْبِسَه بلون مورَّد، ويعلّقوا صليب بزنجير في أعناقهم، والكُهّن العادة، يلبسوا عوض الأسود الوان أزرق لا جودد أو كنتباوي مع إسكوفة، ويضعوا عليها غطااسود أيضا.

وبموجب منطوقهم المنيف تبادروا لاجرا العمل، غبّ قيْد ذلك بسجلّ المحكمة بطرفكم وبمحاكم الايالة بمديريتكم (كذا) حسب اقتضاه، بموجب الارادة السَّنِيَّة.

والله يحفظكم.

في ١٠ ل[٢٠] مع الختم الشريف.

من سعادة المدير لوكيله بطرابلس الشام.

جناب الأخ الأكرم وكيلنا بطرابلس حالا السيد محمد أفندي عادلي المحترم بتشريفكم بمطالعة صُوَر الأوامر العليّة الموشحة أعلاه، يصير معلومكم مضمونهم السامي، فيقتضي إجراء العمل بموجبهم وقيدهم بالسجلّ المحكم، حكم الأمر العالي.

يكون معلومكم.

في ١٢ ن[٢١] سنة ٥٥[٢٢] مع الختم الشريف.

* * *

- (٤) -

هذه المراسلة الشريفة

من مجلس الشرع القويم، إلى فخر الملّة المسيحية المطران القاطن بكنبيه النصارى ووجوه أهل ملّته، وباقي أهل الذمّة من سكان

طرابلس الشام وأسكلتها ــ ختم الله عواقبهم بالخير ــ نُعلمكم أنّه لما أطلعنا على ما بيدكم من الفرمان العالي الخاقاني المُعَرَّب مضمونه المنيف، أنّـه إذا لم يكن منكم وارثا قـاصـر أو قاصره أو غائب، فمن مات منكم، بل كانت الوَرَثَة بالغين حاضرين ولم يطلبوا توزيع التركة

بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس المحمية اجله الله تعالى حضر متوليه مولانا وسيدنا
المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم اعلاه ادام الله تعالى فضائله [illegible] حافظ هذا
الكتاب الشرعي فخر المصلين الحاج طاهر بن [illegible] في خدمة القلاعيه للمحكمة الشرعية
الكائنه بطرابلس المحميه وان يكون خادما للسادة الموالي من حكام الشريعة المطهرة
[illegible] وانهي بغاية الاتقان على حسب الامكان [illegible] بجميع ما يلزم لذلك
[illegible] ماله على ان يكون له الحماية والصيانه والرعايه وبنا المولى الحاكم
الشرعي المشار اليه على كل واقف على هذا الكتاب المدفوع اليه وناظر اليه من جباة
الاموال [illegible] كشيخ محلته وشيخ القلاعيه وغيرهم بان لا يتعرضوا للحاج طاهر
المذكور بطلب شي من الاشياء [illegible] اذ هو في خدمة خدام الشريعة المحمدية
[illegible] بالطريق الشرعي وجرى ذلك وحرر في
اواسط شهر جمادى الاخر من شهور سنة ثمانية وسبعين ومائتين والف

فيما بينهم ممن فَوّضه في رويه القسامة العسكرية بالمحميّة، فلا يتعرّض لهم. وكانت القسمة العسكرية ورويتها بين الورثة مفوّضة لنا، فمن له تفويضها بموجب ما بيدنا من السندات المنيفة ورغبته والتمستم أنّه لا تحرّر تركة لميْت منكم سوا كان قاصرا أو قاصره أو غايب أو غايبه، وأن تدفعوا لنا بمقابله رسم القسمة العسكرية عن كل رأس ميْت ثلاثة قروش إلّا ربع، وتقسيم الورثة والتركة بعلمكم، فأجبناكم للالتماس، ورضينا بذلك منكم برضاكم واختياركم، وإنْ كان غير واف برسم القسمة العسكرية المعتادة قصدا لراحتكم وعدم أخذ انكساركم، فمن الآن وصاعدا لا تدفعوا لنا، ولا نكلفكم سوى ثلاثة قروش إلّا ربع التي حصل الاتفاق بيننا وبينكم عليها، ولا مصرية الفرد.

وحرّرنا لكم هذه المراسلة مطمنين منا بذلك خاطركم.

تحريرا في أوايل محرم سنة أربع وتسعين وماية وألف.

الفقير أبو النصر محمد[٢٣]
المولخلافة بطرابلس الشام
مع الختم المعتاد[٢٤]

— (٥) —

صورة كشف

كشف بالالتماس من طرف الشرع القويم، بأمر سعادة مصطفى بيك ميراللواء، على أودة صرّاف خزينة طرابلس الشام الكاينة في خان الصاغة[٢٥]، بحضور جناب السيد محمد أفندي عادلي زاده وكيل لسعادة المدير المعظّم، وجناب عثمان آغا سرجي بكباشي بلطيجية[٢٦]، ومحمد أفند باش محاسبجي[٢٧] عشرجي[٢٨] آلاي بياده[٢٩]، ودرويش أفندي سرجي صقول آغاسي عشرجي بياده، ومباشر آلاي المذكور. وحضور جناب الحاج صالح أفندي ناظر الشون[٣٠] الذخاير والحاج عمر التدمري. وحضور معاون صرّاف اللاذقية الحاضر بالخزنة، الخواجه حنا فاتول، فدخلوا (كذا) المذكورين جملة. غبّ فتح باب الأُوده المذكورة، فإذا هي فارغة ليس بها سوى أربع فردات تحت الحزم وبأعلاهم ورقة بخطّ الصرّاف تتضمّن أصناف العملة التي داخل الفردات المذكورة، وهي:

ريال مصري عـ ٢١، أكلك عـ ٧٦٤,٥[٣١]، قرش حميدي قديم عـ ٢٠٠، زهراوي عـ ١٥٤، بكشلك قنداق عـ ٣٨٩٥، بشلك طُرَّه عـ ٢١١٤، ناقشلي عـ ٢٠٢١٠,٥[٣١]، قرش مصري عـ ٧٠٧,٥، بارة عـ ١.

فهذا ما حَوَتْه القايمة المذكورة لدى حضرات المذكورين أعلاه، وقد وُضعت بالقلعة صحبة الدراهم المحضرة مع معاون صرّاف اللاذقية. وقد خُتمت الصُرَر المذكورة بالشمع الأحمر بختم كاتبه الفقير إليه سبحانه، كرامه زاده السيد عمر النايب[٣٢] بمدينة طرابلس الشام حالا.

حُرِّر في ١٤ شعبان سنة ١٢٥٦[٣٣].

شهود الأسماء المرقومين اعلاه

جناب عثمان آغا سرجي بكباشي بلطجية. مع الختم	جناب محمد أفندي باش محاسبجي مع الختم	جناب درويش أفندي سرجي صقول آغاسي. مع الختم
جناب الحاج صالح أفندي ناظر شون مع الختم	الحاج عمر آغا التدمري مع الختم	الشيخ محمد أفندي مباشر عشرجي آلاي
	الخواجه حنا فاتول معاون صرّاف اللاذقية مع الختم	وغيرهم[٣٤]

عبد الرحيم صالح
معمر زاده

محمد بن السيد
الشماع

محمد بيرم كاتب
الحاج

وغيرهم من الحاضرين

سبب تحريره هذا الموقع الذي هو على نهج الشرع القويم هو انه
تصفية وظيفة
بمجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف بطرابلس الشام المحمية لعله ... قرر متوليه
مولانا وسيدنا المولى الحاكم الشرعي الموقع خطه الكريم باعاليه دامت فضائله
حسبما بامره ولما لحامل هذا الكتاب الشرعي وناقل ذا الخطاب المرعي فخر
الفضلاء الشيخ مصطفى بن المرحوم الشيخ محمد في وظيفة النظر على وقف جامع
طيلان المعمور بذكر الله تعالى الكائن بباطن طرابلس المحمية لهم المعلوم
في صحة ملامة وقفا الجامع المذكور اليه كل يوم ثلاث عثمانيات فضيات
واذن له بمباشرة الوظيفة المزبورة وتناول معلومها المزبور اسوة من تقدمه
وذلك بعد ان عزل ... الشيخ مراد بن الشيخ محمد ... وفي المقرر لكا ... الوظيفة
المزبورة لكون تولية وقف الجامع المذكور تقريرا الان عليه ووظيفة
النظر والتولية ممتنعة الجمع بعزل شرعي تقريرا واذنا ... [illegible] مقبولين من
الشيخ مصطفى المذكور ... القبول الشرعي تحريرا في اليوم الخامس
من شهر رجب ... سنة ثمان وسبعين [illegible]

مصطفى ...
مصطفى ...

عبد الرحمن صالح
معمر زاده

... صالح مولانا
الحاج علي ... صالح

محمد بن السيد
محمد بيرم كاتب
... الحاج ...

محمد بن منصور الحاج ... الحاج ... وغيرهم من الحاضرين

الهوامش

(١) المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، يحيى بن أبي الصفا المعروف بابن محاسن، تحقيق د. محمد عدنان البخيت، ص ٨٠، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١.

(٢) المقصود خبراء القياسات والمسافات.

(٣) لم نستطع تحديد هذا المكان، ويُحتمل انه في نواحي البقيعة على طريق حمص.

(٤) الرطل المصري يساوي الكيلو وربع الكيلوغرام (١٢٥٠ غراما).

(٥) يقصد أبطال الجري والسباق.

(٦) بمعنى تفوّق.

(٧) هو القاضي عبد الله المعبّر عنه بالنائب.

(٨) يوافق آخر شهر تموز من سنة ١٦٧٧ ميلادية.

(٩) سجلّ رقم ٣، ص ٢٦، قضايا سنة ١٠٨٨هـ.

(١٠) هو الشيخ أبو هبة الله علي البصير الحموي الطرابلسي، مفتي طرابلس الحنفي، ولد بحماه وقرأ بها، ثم رحل إلى طرابلس وعمره ٤٠ سنة وتوطّنها، وولي الافتاء بها مدّة حياته. له تآليف كثيرة في الفقه وغيره، منها: «شرح الملتقى» سمّاه «قلائد الانحر شرح ملتقى الأبحر» و«نظم الغُرَر» في ألْفَيْ بيت، و«نظم العوامل الجرجانية»، و«نظم قواعد الاعراب» و«حُور العين» وهو منظوم في الغاز الفقه يشتمل على ألف سؤال واجوبتها، لقي الشيخ عبد الغني النابلسي ابنه هبة الله مفتي طرابلس ايضا عند رحلته إلى طرابلس سنة ١١١٢ هـ. وقد انشده من شعر أبيه. توفي علي البصير في شهر ذي الحجة سنة ١٠٩٠هـ. ودُفن بجبّانة الغُرَباء ظاهر طرابلس. (انظر عنه: خلاصة الأثر ٣/٢٠١ و٢٠٢، التحفة النابلسية ٦٣ و٦٤، كشف الظنون ١٢٠٠، هديّة العارفين ١/٧٦٢، تاريخ حماه ١٤٩، مختصر تاريخ سورية ٢/١٩٢، معجم المؤلّفين ٥/٧٨، ٧/٤٤ وقد وضعنا له ترجمة في موسوعة العلماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي، المجلّد ١٣، حرف العين).

(١١) هو مصطفى بن عبد الحيّ الشافعي. اجتمع به الشيخ رمضان العُطيفي في رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٣هـ. كما اجتمع به ابن محاسن الدمشقي في رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٨هـ. كانت له حجرة في الجهة الغربية من الجامع الكبير. (انظر عنه: رحلة العطيفي ١٨ ــ ٢٠، المنازل المحاسنية ٧١ و٧٢، واثبتنا ترجمته في موسوعة العلماء المسلمين، مجلّد ١٤، حرف الميم).

(١٢) بناه الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٤م. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك ٥٧ ــ ١٣٤).

(١٣) هو عبد القادر بن عبد الحي الشهير بابن الجاموس. كان خطيبا وإماما في مسجد البرطاسي. لقيه ابن محاسن في رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٨هـ (المنازل المحاسنية ٧٠).

(١٤) بناه الأمير شرف الدين عيسى بن عمر بن عيسى البرطاسي الكردي، شادّ الدواوين بطرابلس، بين سنتي ١٤ ــ ٧٢٥ هـ. (انظر كتابنا: تاريخ وآثار.. ص ٢٠٧ ــ ٢١٦).

(١٥) هو محمد بن محمد بن محمود بن عبد الحق بن محمد بن محمد الشافعي الأزهري الخَلْوَتي المحدّث، الجدّ الأعلى لآل الحامدي بطرابلس. كذا جاء نسبه في الوثائق الخطّية المحفوظة في مكتبة الشيخ عبد الحميد الحامدي رحمه الله. (دفتر مقتطفات المخطوطات، للسيد ظهير عطفات بازرباشي، ص ٥ و ٨ و ٩).

(١٦) أنشأه بدر الدين العطار قبل سنة ٧٣٥هـ. وليس في سنة ٧٥١ هـ. كما جاء في المراجع الحديثة وقد توفي بدر الدين في سنة ٧٤٩ هـ. (انظر: تاريخ وآثار.. ص ١٩٠ ــ ٢٠٦).

(١٧) هو خطيب جامع القلعة بطرابلس. كان لا يزال حيّا في سنة ١٠٨٨هـ. (انظر السجل رقم ١، ص ١١ و ١١٨ و ٩٧/٣).

(١٨) يوافق شهر تشرين الثاني من سنة ١٦٦٨م.

(١٩) سجلّ ٢، ص ١٦٠ (سنة ١٠٧٨ و ١٠٧٩هـ).

(٢٠) اختصار لشهر شوّال.

(٢١) اختصار لشهر شعبان.

(٢٢) سنة ١٢٥٥هـ. (انظر سجلّ رقم ٣٧، ص ٦٦).

(٢٣) لعله الشيخ الفاضل الأديب، الذي ذكره المرادي في سلك الدرر، ٣/١٢٤ و ١٢٥.

(٢٤) سجلّ رقم ٣٨، ص ١ على ظهر الصفحة، (سنة ١٩٤٤ هـ) الموافقة لسنة ١٧٨٠م.

(٢٥) يُعرف الآن بخان الصابون، ويقع في سوق الصاغة، من وقف خاصكي سلطان.

(٢٦) رأس فرقة حاملي البلطات.

(٢٧) رئيس المحاسبين.

(٢٨) صاحب العُشُور.

(٢٩) الفرقة العسكرية للجنود.

(٣٠) المخزن الكبير أو المستودع المُعَدّ لحفظ البضائع.

(٣١) في الأصل كتبت النصف هكذا (√)، وقد كتبناها في الموضعين (٠,٥).

(٣٢) هو حفيد مفتي طرابلس عمر بن مصطفى بن ابي اللُطْف الحنفي الطرابلسي الشهير بابن كرامة.

(٣٣) يوافق شهر ايلول من سنة ١٨٤٠ ميلادية.

(٣٤) سجل رقم ٥٦، ص ٣٤ (سنة ١٢٥٦هـ).

د. يوسف صايغ عن
«أزمة النفط ومستقبل الاقتصاد»

الآتي قاتم إذا لم نستوعب العبر



توقع الخبير الاقتصادي الدكتور يوسف صايغ «مستقبلا قاتما للوطن العربي بأكمله إذا لم يسارع إلى استيعاب العبر والدروس من الأزمة النفطية الحالية واحلال النفط في موقعه السليم من المسار الاقتصادي العام.

جاء ذلك في محاضرة ألقاها الدكتور صايغ في مركز «النادي الثقافي العربي».

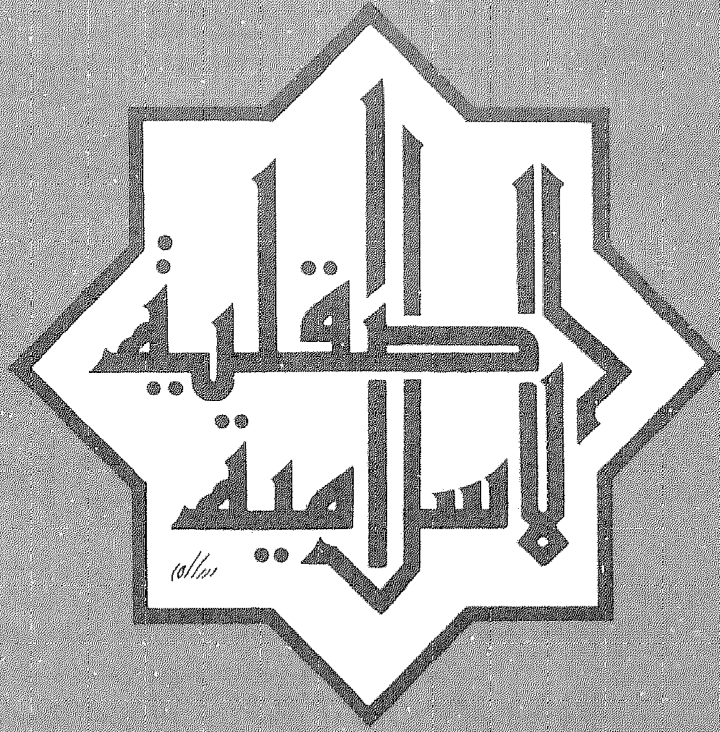
وتحدث صايغ في محاضرته بعنوان «أزمة النفط الراهنة ومستقبل الاقتصاد العربي» عن الأزمة النفطية الراهنة والمحاولات الحثيثة لضرب منظمة «أوبك» مشيرا إلى النتائج السلبية التي تعكسها هذه الأزمة على أصعدة الزراعة، التنمية، التصنيع، العائدات، الاستهلاك، الاستثمار وغيرها.

وقال: ان احتمالات المستقبل الاقتصادي العربي تفترض مسارين الأول: هو إحجام العرب عن استيعاب العبرة من الأزمة النفطية الحالية والاستمرار في الانبهار بالعائدات النفطية وهذا ما يدفعهم للمسارعة إلى المنافسة السرية في ما بينهم فينتج عن ذلك، حرب الأسعار وعدم التمسك بنسبة معينة من الانتاج وعدم الانضباط الاستهلاكي، والانفلاش الاستثماري، وكل ذلك يؤدي إلى تبعية اقتصادية وسياسية.

المسار الثاني: يفترض مسارعة العرب إلى استيعاب العبرة وهذا يعني العودة إلى الأصول فيؤدي ذلك إلى تنمية زراعية وصناعية وإلى انضباط استهلاكي وتحكم بالإنتاج وعدم الانزلاق نحو المغريات كما يؤدي إلى تحمل المسؤوليات القومية والدولية.

وقال: الأمن هو سياج الانماء إذ لا يمكن (لأية دولة أن تقيم المشاريع ما لم تؤمن الحماية اللازمة لها فهل هذا الأمر موجود في الدولة العربية؟ وهل هناك أقطار عربية تستطيع أن تدافع عن إنجازاتها الانمائية من أطماع اسرائيل مثلا؟ لذلك نقول بأنه يجب تضافر الجهود القطرية التي تفيد في الأمن والانماء القوميين والعكس صحيح، كما يجب ترشيد المسارين الانمائي والاستهلاكي.

وعدد صايغ شروط إحلال النفط لموقعه السليم بالآتي: عدم الرضوخ للابتزاز الغربي، القبول بحجم انتاج نفطي معتدل، تصنيع النفط والغاز، استخدام الثروة في الانماء، فهم النفط والانماء على حقيقتيهما، تشجيع الابداع الفكري، فهم التشرذم العربي، رفع مستوى المشاركة السياسية في الوطن العربي، وضع التصورات السليمة للانماء القطري والقومي، بذل الجهود لتحقيق هذه الشروط التي توفر لنا الاضاءة الكاملة على درب الكرامة.



ومهد الحضارة العربية النورماندية

جيان لويجي سكارفيوتي وبول لاند

ظل العرب، منذ أسد بن الفرات فاتح صقلية، يحكمون هذه الجزيرة الجميلة مائتي عام. وقد حظيت بعنايتهم، ونشاطهم، فانعكست حضارتهم آثارا، ما يزال بعضها قائما، خاصة في باليرمو التي كانت عاصمتهم، وسموها المدينة.

وقد حافظ النورمانديون الذين انتزعوا صقلية من العرب على الطابع العربي واستقدم روجرز الثاني، ثاني ملوكهم العلماء والمفكرين العرب ــ ومنهم الادريسي ــ حرصا منه على متابعة الخط الحضاري العربي.

ولم يحظ تاريخ العرب في باليرمو، باهتمام الباحثين الحديثين. الموضوع الذي ننشره يلقي ضوءا على الآثار العربية في صقلية.



في طريق عودتها من الحج إلى المغرب سنة ١١٨٤م. تحطمت سفينة الحجاج، التي كانت تقل الرحالة الشهير ابن جبير، في مضيق مسينا على شواطىء جزيرة صقلية فانتهز سكان مدينة مسينا الحادثة مستقلين قواربهم لانقاذ الركاب المهددين مقابل أجر مرتفع. فأصبح المسلمون في مأزق حرج لا يحسدون عليه وخاصة الفقراء منهم حتى أتت شخصية مسؤولة مرموقة من مسينا، كما يخبرنا ابن جبير، وأمرت بنقل كافة المسلمين مجانا إلى الشاطىء.

لم يخف ابن جبير استغرابه وقام هو وجماعة



شخصيات عربية تزين منذ القرن السادس عشر البورتانيوفا (احد مداخل باليرمو)

من المسلمين بزيارة المنقذ وشكره على فعلته فاندهشوا عندما عرفوا أنه حاكم صقلية الذي استقبلهم ووعدهم بالحماية بالرغم من كونه نورمانديا مسيحيا.

دهش ابن جبير أمام هذه المعاملة خاصة أن النورمانديين المسيحيين كانوا قد استولوا على صقلية منذ مئة عام (حين قضوا على الحكم الإسلامي فيها) ولم يعرف ابن جبير آنذاك أن هذه الجزيرة ستحمل له الكثير من المفاجآت غير المنتظرة فقد وجد أن المسيحيين يتكلمون اللغة العربية وأن أغلبية موظفي الحكومة يدينون بالإسلام وأن آثار مئتي عام من الحكم الإسلامي ما زالت واضحة المعالم.

* * *

أما النورمانديون وهم رجال عسكريون... فأتوا من اسكندينافيا واتجهوا جنوبا بحثا عن أرض جديدة يستولون عليها وكان أن وصلوا إلى جنوب ايطاليا وأعجبتهم الأرض فلم يتأخروا في الحصول عليها بالرغم من قلة عددهم وكانت الجزيرة الجميلة الخضراء الخاضعة للحكم الإسلامي منذ مئتي عام أبرز ما أرادوا.

كانت المملكة النورماندية نقطة بيضاء في صفحة العصور الوسطى السوداء فبالرغم من تطابق بداية الحكم النورماندي مع الحملات الصليبية التي انطلقت بعد أربع سنوات فقط من استيلائهم على الجزيرة، بالرغم من ذلك رعى هؤلاء شعبهم المنتمي إلى أصول أتنية ودينية ولسانية مختلفة بكثير من العناية والعطف ما زال مفقودا منذ العصور الوسطى وحتى الآن. أما انجازاتهم الفنية والإدارية والمعمارية والزراعية والعلمية فهي وليدة بل وريثة الماضي الإسلامي العريق في هذه الجزيرة دون أن ننسى جهود وخيال روجرز الثاني الذي رعى الادريسي، أكبر جغرافيي الإسلام.

* * *

يعود الاهتمام الإسلامي بصقلية إلى بداية

التاريخ الإسلامي، فإلى جانب المعارك البرية في الشرق التي واجه فيها المسلمون أكبر عدو لهم، الامبراطورية البيزنطية، قام معاوية، والي دمشق، بطلب من الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (بعد حوالي ٢٠ سنة من وفاة الرسول (ص)) بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة صقلية هذه المقاطعة البيزنطية ذات الموقع الاستراتيجي الكبير في البحر المتوسط التي مكنت البيزنطيين من السيطرة على الملاحة البحرية غرب المتوسط والقيام بغارات بحرية على مدن افريقيا الشمالية وشرق المتوسط الإسلامية.

استمر المسلمون بغزو صقلية حتى تمكنوا من فتحها في حزيران من سنة ٨٢٧ م عندما احتلوا مدينة المزارة على الطرف الغربي للجزيرة.

انطلقت الهجمة الأولى من المقاطعات الإسلامية الإفريقية على سواحل تونس وكانت تحت حكم الأغالبة الذين اتخذوا قرارهم هذا بعد ازدياد الضغط البحري البيزنطي عليهم واقتناعهم بأهمية موقع صقلية الاستراتيجي. قاد هذه الحملة رجل لم يحمل سيفا في حياته قط وهو أسد بن الفرات القاضي المحترم وعلم من أعلام القيروان. وتوجه هذا القائد إلى جيشه قبل الانطلاق بكلمة فريدة افتتحها بـ: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له!» مقسماً أنه لم يوكل بهذه المهمة من قبل أبيه أو جده ولم يعرف أحدا من قبله حصل له ما حصل فقد أوكلت إليه بسبب انجازاته وبواسطة العلم لا السيف وحث جنوده على عدم اضاعة أي جهد إلا في البحث عن الحكمة والعلم مطالبا إياهم بالمحافظة عليها وحمايتها بالرغم من كل المصاعب لأنها ستضمن لهم الحياة الدنيا والحياة الآخرة!.

استغرق فتح صقلية خمسة وسبعين عاما بعد احتلال المزارة وكانت أصعب من فتح اسبانيا. ولكن الفتح توافق مباشرة بالهجرة إليها والتمركز فيها فقسمت الجزيرة إلى ثلاث محافظات. الأولى فال دي مزارة في الطرف الغربي وعاصمتها باليرمو والوسطى وهي فال دي نونود وفيها مدينة سيراكوز، والثالثة التي تحتل بقية الجزيرة وآخر جزء تم فتحه وهي فال دميمون وشملت كاتانيا ومسينا.

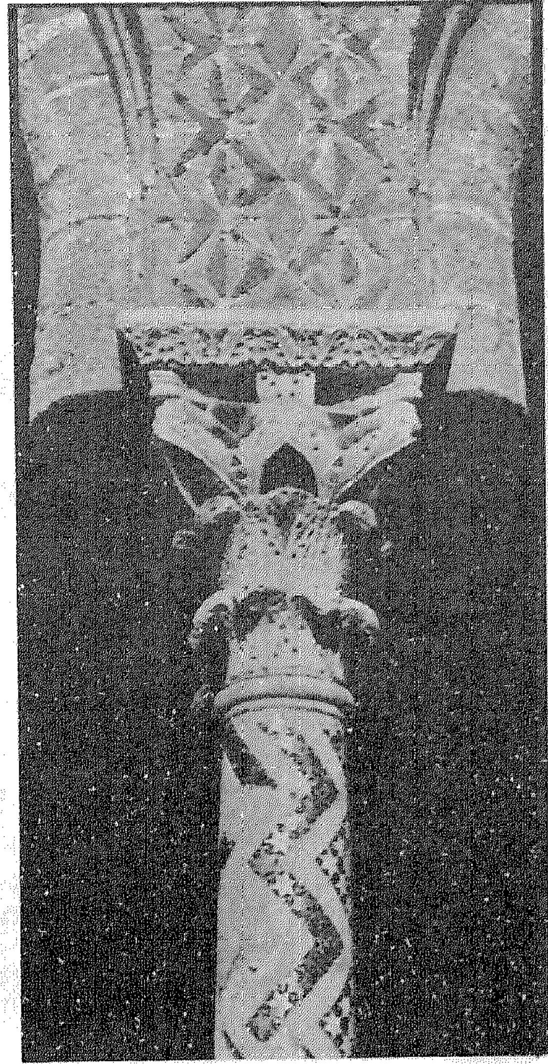
عكس تاريخ صقلية السياسي تحت الحكم الإسلامي المتغيرات السياسية في شمال افريقيا وفي الشرق فمن خلافة الأغالبة إلى الفاطميين إلى الزيديين، ولكن الإنجازات المتميزة في هذه الفترة لم تكن سياسية ولم تدرج تحت أعمال التاريخ. فصقلية الإسلامية كانت أهراء للعالم كما كانت من قبل اهراء روما. وبالرغم من اكتفاء الرومان والبيزنطيين بزراعة القمح فقط فلقد أدخل العرب إليها مزروعات جديدة كالقطن والنخيل وقصب السكر والحمضيات وذلك بعد أن طوروا نظام الري في الجزيرة والقيام ببعض الإجراءات الأخرى كضرب الاقطاعيات الكبيرة وتوزيع الأراضي وانهاء سنين طويلة من الجمود الاقتصادي والاجتماعي... فازدهرت الجزيرة.

أدت الثورة الزراعية في صقلية إلى إنشاء عدد من الصناعات الزراعية كالنسيج وصناعة السكر والحبال وحياكة الحرير وصناعة الورق الذي دخل إلى أوروبا عبر صقلية. وأصبح الحرير الصقلي ذا شهرة عالمية وأفضل الأردية لزعماء العالم مسلمين أو مسيحيين. واستمرت حياكة الحرير بالازدهار تحت الحكم النورماندي وكان يحمل تطريزا أعطاه مركزا مميزا وما زالت عباءة روجرز الثاني الموجودة حاليا في المتحف الوطني في فينا شاهداً على غنى وجودة هذه الصناعة.

وكعادة المسلمين في كل أرض فتحوها، قام مسلمو صقلية بتوسيع وبناء المدن الجميلة كمسينا وسرقوسة وسياكة ومزارة وكاسترو جيوفاني، وأجمل المدن آنذاك كانت باليرمو المسماة المدينة عند المسلمين والتي وصفها ابن جبير بقوله:

«هي بهذه الجزائر أمّ الحضارة الجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة فما شئت من جمال مميز ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عنيقة أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبية البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكدان يشقها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها للكها دنياه... تنتظم بلبتها قصور انتظام العقود في نحور الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها

كاتدرائية
مونريال (١١٧٢)
الأثر المعماري
العربي ما زال
واضحا



منقوشات إسلامية في كاتدرائية مونريال.

بين نزهة وملاعب... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بآذان مسموع وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن... تحار الأبصار في حسنها».

ما زالت باليرمو تحمل الكثير من تلك الروعة رغماً عن تلك الأزمنة المعتمة التي مرت عليها وروعتها لا تنحصر في المقامات فقط بل في أرصفة الطرقات وتخطيط المدينة العربية الذي أعاد تنفيذه ببراعة البروفسور روساربو لا دوقا. ويحتل قصر ريالي (Palazzo Reale) قلب المدينة النورماندية وهو معروف بـ «الكاسرو» نسبة إلى كلمة القصر العربية، وعلى مقربة من المرفأ تقع منطقة الكالسا التي ترجع إلى العام ٩٣٧م حيث بني خط دفاعي خارجي لحماية المدينة من أي هجوم بحري، وكان إسمها العربي «الخالصة» ومن هنا إسمها الحالي. أحيطت الخالصة بسور مرتفع فيه أربعة أبواب وكانت المركز الإداري لصقلية، وداخلها بني مسجد رائع وأماكن إقامة للجنود ومقر قيادة الوزارات.

* * *

وأكثر ما تحس بصقلية العربية عندما تجوب أسواق باليرمو الخارجية التي ما يزال يحافظ القليل الباقي منها، بسبب توسع المدينة، على مظاهر «السوق» في شمال إفريقيا وخاصة في مدينتي كابو وبالارو. ولو تخيل أحدنا سكان باليرمو الحاليين بأردية طويلة فضفاضة لاكتملت الصورة الخيالية لأن ملامح الشعب وسفن البحارة ورائحة المنطقة تذكرك بالعالم العربي.

إلى جانب الأسواق تنتصب أسماء الشوارع العربية الأصل أو الدالة على المهنة فتسمع بمنطقة لاتاريني (Lattarini) حيث تباع وتصنع العطور منذ القرن التاسع وكان العرب يسمونها بسوق العطارين على مقربة من مسجد ابن سقلاب الذي وصفه ابن حوقل في القرن العاشر.

ولا نجد فنا معماريا إسلاميا خالصا بسهولة لأن العمارة الصقلية والفنون الأخرى في هذه الجزيرة تميزت بامتزاج أساليب عصور وحضارات متلاحقة فنجد. على سبيل المثال، قصر ريالي مرتكزا على أعمدة فينيقية شاد الرومان على أساسها ثم شاد البيزنطيون فالعرب فالنورمانديون فالسوابيون فالاسبان.. وما زالت كاتدرائية باليرمو البيزنطية الأصل والتي حولها المسلمون إلى مسجد تحمل على أحد أعمدتها آية قرآنية كريمة، وهذا العامود بذاته حمل من قبل سقفا لمعبد روماني سابق.

لا يوجد في صقلية غير عملين معماريين عربيين أحدهما قلعة لافافارا (La Favara) المشتقة اسمها من الإسم العربي الفوارة وكانت مقر الأمير جعفر (٩٩٧ ــ ١٠١٩) الذي أعطي اسمه لأحد الشوارع المؤدية للقلعة، ثم امتلك القلعة الملك روجرز الذي بنى كنيسة في أرجائها. أما الأثر المعماري العربي الآخر فهو حمامات كفالاديانا (Cefala Diana) على بعد ثلاثين كيلومترا من باليرمو على الطريق إلى المريفنتو

وبالرغم من عدم صلاحيتها وسوء حالتها الحالية استمرت هذه الحمامات بالعمل حتى خمسين سنة خلت وكانت قد شيدت في القرن الحادي عشر وزارها الرحالة ابن جبير.

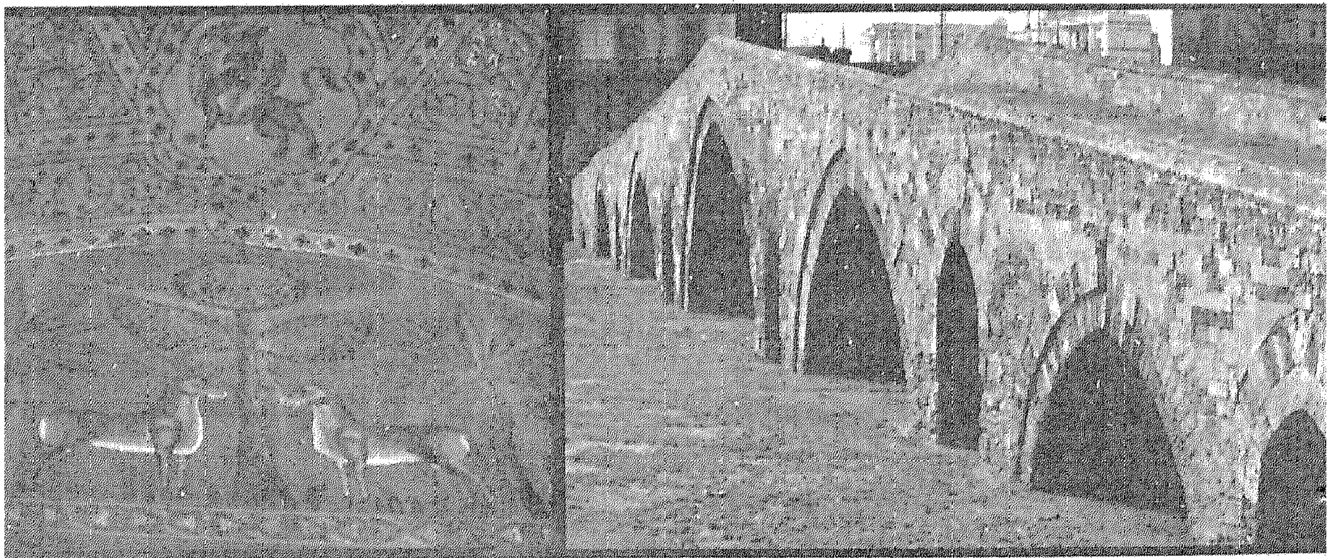
* * *

اعتمدت صقلية النورماندية على التراث العربي الإسلامي في الجزيرة فكان الوجود العربي حافزا كافيا للاندفاعة المعمارية والفنية الكبيرة التي ميزت صقلية أيام النورمانديين خاصة أيام روجرز الثاني. لذا من المفضل أن يطلق على الحضارة الصقلية اسم «الحضارة العربية ـ النورماندية» لاختلاطهما واستمرارهما حتى بعد انهيار الحكم النورماندي في صقلية.

اعتبر الرعيل الأول من الأعلام أن العمارة الصقلية نورماندية أكثر منها عربية، أما الآن فلقد كثر من يتحدث كما كتب البروفسور جيسوب بلافيور، عميد التاريخ المعماري في جامعة باليرمو، في كتاب له «ان العنصر النورماندي في العمارة العربية ـ النورماندية اقل مما يدل عليه الوصف الأخير، فلقد كان النورمانديون على قدر كبير من الحنكة عندما امتلكوا نظرة مستقبلية للأمور بقبولهم بل باعجابهم وتقديرهم لما وجدوا في الجزيرة مع الحفاظ على الخيوط التي تربطهم بأرضهم الأولى. فامتازت قوة وفعالية الإدارة النورماندية بسياسة المرونة التي اتبعها هؤلاء مع النظام الإسلامي السابق وبذلك لا تدين الثقافة بشكل عام والتقاليد الفنية بشكل خاص إلا بالقليل لأرض الجدود النورمانديين».

انطلاقا من هنا يمكننا استنتاج مدى عمق التأثير العربي في الفنون والعمارة، ولو عممنا لأمكننا القول أن كل النصب والكاتدرائيات والقصور والقلاع التي شيدت في الحكم النورماندي هي عربية لأن الصانع كان عربيا والمعماري كان عربيا. ولكن لا يجوز أن نغفل عنصرا ثالثا مؤثرا في هذا الخليط وهو العنصر البيزنطي الذي ساهم في خلق أسلوب معماري خاص في صقلية. وها هي الكابيلا بالاتينا (Cap-pella Calatina) في قصر ريالي تنتصب مثالا واضحا على امتزاج العناصر الثلاثة في عمل جديد ومثير من روعة السقف المنحوت والمزين بالألوان على أيدي الصانع العربي إلى الفسيفساء التي ترصع جدران الكاتدرائية وهي من عمل الصانع البيزنطي.

من أروع استراحات الملوك النورمانديين استراحة الزيسا (Zisa) التي اشتقت اسمها من كلمة العزيز، وهي حاليا قيد الترميم. أما استراحتا الكوبا (Cuba) والكوبولا (Cubula) اللتين شيدتا خارج أسوار مدينة باليرمو فلقد أصبحتا الآن داخل أسوارهاواسمهما مشتق من المكعب (Cube).



جسر الادميرال في باليرمو عربي التصميم سنة ١١١٣.

فسيفساء في كابيلا مالاتينا.

وينتصب الماضي العربي في كل أرجاء القال دي مزارة كتخطيط المدن كمدن قراباني، مارسالا، ومزارة نفسها التي تشير بوضوح إلى جنسية بانيها وما زالت إحدى نواحي مدينة مزارة تحمل اسم لاكسبا (La Kasbah) وكانت مقرا للمهاجرين التونسيين والجزائريين في السنوات الأخيرة. فعلا، الدولاب يدور دورة كاملة.

تضج صقلية بالأسماء العربية فالكنترا من القنطرة وجبلينا من جبل وهكذا دواليك. كما تسمع كثيرا من الكلمات الصقلية العربية الأصل ككلمة زغارة (زهر الليمون) وقد دخلت هذه اللفظة إلى اللغة الإيطالية بشكل رسمي.

* * *

لكن الماضي العربي في صقلية الذي يخرج إلى النور بصعوبة إذا اعتمد على الأدلة المادية التي ما زالت منتصبة، يتوضح بل يضيء إذا اعتمد على التراث الثقافي والعلمي الذي انتقل عبر صقلية إلى إيطاليا ومنها إلى أوروبا. فتحت حكم روجرز الثاني الفريد من نوعه أصبحت صقلية مضافا مفتوحا للأعلام الشرقيين والغربيين وهي المرة الأولى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية فساهم لقاء هؤلاء الأعلام في جو من التقدير المتبادل على انتشال أوروبا من رهبة العصور السوداء دافعة إياها إلى عصر النهضة. إن انفتاح العرب التقليدي على الأديان الأخرى، الذي شجعه الملوك النورمانديون، دفع إلى خلق نقاش حر ومناخ فكري متحرر طالما بحث عنه العالم. فكانت علوم الفلك والطب والفلسفة والرياضيات مواد نقاش وترجمت على أثرها كثير من الكتب العربية إلى اللاتينية لتصبح الكتب الدراسية الأساسية في جامعات أوروبا التي

من "رحلة ابن جبير":

رحلته الى صقلية



«وفي يوم مستهله (الأول من رمضان) مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار وهو جبل البركان المشهور بصقلية.. ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة فلما كان عشي يوم السبت ثاني الشهر المذكور اشتد هبوبها... حتى أدتنا إلى أول المضيق... وهذا المضيق.. يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ويغلي غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه..

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك.. دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أحالته الريح بقوتها إلى أحد البرين وهو ضارب فيه فأمر رئيسهم بحط الشراع للحين فلم ينحط شراع الصاري المعروف بالاردمون وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعا قطعا.. وفي أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر.

ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعا لتلك الحال... إن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس في تخليصهم فسأل عنهم وأعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعي من سكته وخلص جميع

ابتدأت بالتواصل خلال القرن الثاني عشر وأصبحت جامعة ساليرنو المؤسسة في القرن الثالث عشر أهم جامعة للطب وهناك قام العلماء بترجمة مؤلفات ابن سينا الطبية إلى اللاتينية واعتمدت أولى العمليات التشريحية العلمية.

لم ينس سكان صقلية ماضيهم الإسلامي الذي ما زال يعيش في أخبار المعارك والأساطير التي تتناقلها أسواق باليرمو ومسينا منذ عقود طويلة وتقوم الدمى الكبيرة التي ترتدي أفخر الملابس بتمثيل أدوارها في مسارح الدمى المتحركة. وما زال الحكواتي (الراوي) المعروف عند العرب يتلو الحكاية تلو الأخرى عن أبطال عظماء تتسامر بأخبارهم الألسن وترسمهم الأيدي في نواحي صقلية.

عاد موضوع ماضي صقلية العربي إلى الازدهار مجددا بعد أن أهمل لمدة طويلة، بالرغم من أعمال ميشيل عماري مؤرخ القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٩٥٩ افتتحت جامعة باليرمو قسما خاصا باللغة العربية وآدابها.

ان ماضي صقلية ما زال مهملا وبحاجة إلى الكثير من البحث والتمحيص ولكن زائر الجزيرة ما زال يشتم رائحة مميزة وبعيدة عن أوروبا ازدهرت يوما قرب قلب القارة الأوروبية، ولقد كتب الشاعر العربي الصقلي ابن حمديس وهو الذي عرف ألم فراق جزيرته بعد نفيه منها، كتب قبل سبعة قرون:

«عندما الفظ كلمة صقلية تختلج الأشواق في قلبي. ان الإنسان المنفي من الجنة لا يمكنه إلا التحدث عن الأشياء التي خسرها». ●

عن مجلة: «Aramco World», Magazine Nov — Dec 1978

المسلمين عن سلام وقيل الحمد لله رب العالمين.

هذه المدينة (مسينة) هي موسم تجار المسيحيين، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار.. تغص بقاطنيها وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها.. لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وان كنت غريب الوجه واليد واللسان.. ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه.. فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها.. وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بانها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة.

— وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة. وفيها يسكن الحضريون من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم في الأرياض كثير وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها..

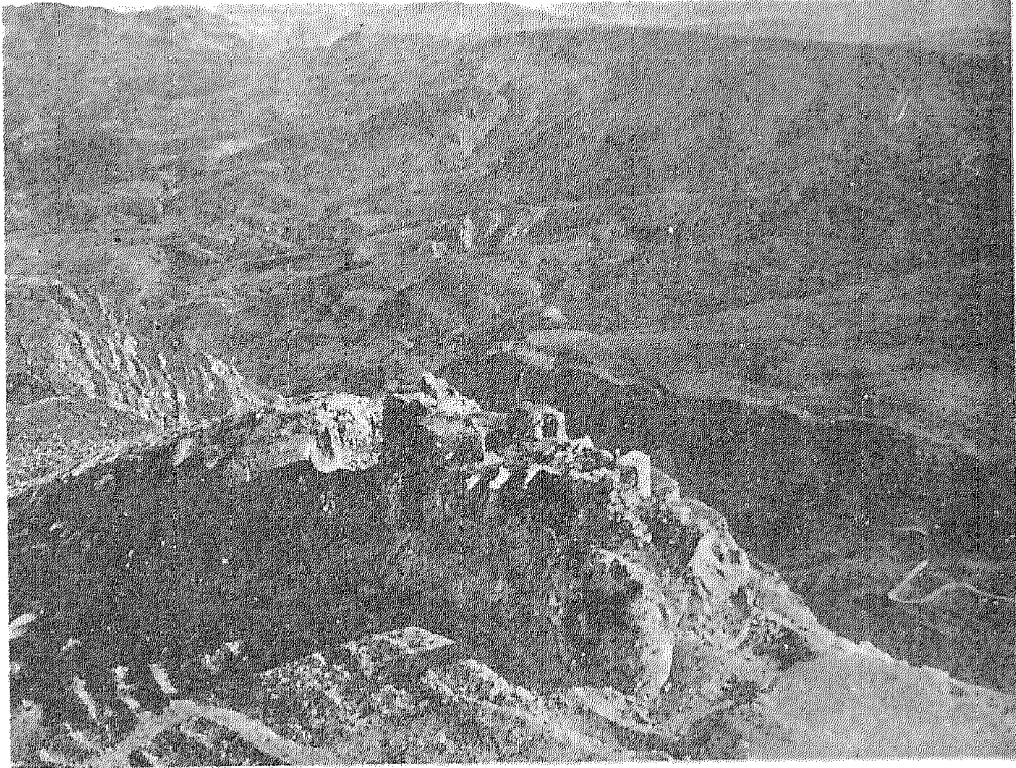
وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها.. ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه.

.. وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين فصيحات الألسن متلحفات متقيات خرجن في هذا العيد (عيد الفطر) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة..

... ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين ولا سيما بحضره ملكه المدينة المذكورة وله بمسينة قصر ابيض كالحمامة ومطل على ساحل البحر.. وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتوسيم مراتب رجاله وتضخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين. وملكه عظيم جدا وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له ارزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه.. ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية».

من «رحلة ابن جبير»
مصر، مطبعة السعادة، سنة ١٩٠٨

صفحة مطويّة من تاريخ جبل عامل النضالي


قلعة الشقيف.

مقاومة سياسة الجزّار التدميريّة
(١٧٧٥ - ١٧٨٥)

د. حسين سلمان سليمان

الموقع



كان جبل عامل يشكل القسم الثاني من ولاية(*) صيدا، وامتدت حدوده من نهر الأولي شمالاً حتى الرأس الأبيض جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كلم شرقاً. وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية وتخترقها أنهار وجداول.

وفصل مجرى نهر الليطاني هذه البلاد الى قسميه جنوبيه وشماليه، ضم القسم الأول منها مقاطعات تبنين وهونين وقانا ومعركة، أما الشمالية فهي الشقيف والشومر والتفاح.

وقد كان لتكوين جبل عامل الطبيعي وموقعه، أثر هام في تطور حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فموقعه كحلقة اتصال بين جبل الدروز وفلسطين وسوريا، جعله يتأثر الى حد كبير بتقلبات ميزان القوى في المناطق المجاورة

له. فتوزعت قراه في الداخل وعلى هضاب هذا الجبل، بعيداً عن الساحل حيث الصراع على امتلاك مراكز التقاء المواصلات الداخلية. كما كان لهذا الموقع أثره على السكان، فكون هذه البلاد تشكل حلقة اتصال مع جيرانها، حتم عليها الاستفادة من النهضة الاقتصادية التي شهدتها قراهم في القرن الثامن عشر، فنتيجة لنجاح زراعة القطن والتبغ ومن ثم حصولهم على التزام مرفأ صور سنة ١٧٥٩، سعى زعماء تلك البلاد الى مضاعفة قوتهم العسكرية وزيادة نفوذهم السياسي، فاهتموا بتحصين القلاع والحصون المنتشرة في ربوع وشواطىء بلادهم، كقلعتي الشقيف وتبنين وغيرهما نظراً لما تتمتع به هذه القلاع من أهمية ستراتيجية.

وكانت مدينة صور بمثابة سوق لجبل عامل، والمنفذ البحري الذي يصدر منه السكان منتجاتهم الزراعية الى الخارج، ويستوردون عن طريقه مايحتاجون من سلع. ويكتنف المدينة سهل خصب مروي كان يزرع بالقطن والذرة والشعير والقمح والتبغ، ونظراً للرواج الذي كانت تلقاه السلعة الأخيرة في دمياط، اهتم السكان بزراعتها للغاية.

السكان

ومعظم سكان جبل عامل من الشيعة الامامية «الاثني عشرية» باستثناء بعض القرى المسيحية وتبلغ نسبتهم العشر تقريباً. وعرفت هذه البلاد في العصور الحديثة باسم بلاد بشارة، و«بلاد المتاولة»، منذ ان أطلقت هذه التسمية على شيعة هذه البلاد، وقد راجت التسمية الأخيرة بين القناصل الأوروبيين، في التقارير التي كانوا يرسلونها الى حكوماتهم (Pays du Mutualis).

وكان يحكم هذه البلاد في القرن الثامن عشر مجموعة من المشايخ الاقطاعيين المتاولة، يتولى كل منهم ادارة احدى مقاطعاتها. ويقيم فيها مع اتباعه المزارعين، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه، في مأمن بعيداً عن أي تصد مفاجىء من قبل السلطات العثمانية. وينتمي هؤلاء المشايخ الى ثلاث عائلات اقطاعية، كانت لها السيادة الأولى في جبل عامل، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف وبنو منكر في الشومر والتفاح وبنو علي الصغير في بلاد بشارة، وكانت زعامة البلاد في البيت الأخير.

وكان بإمكان كل شيخ ان يجند عند الحاجة من مئتين وخمسين الى ثمانمئة رجل، اذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها ألفان وخمسمائة خيال. وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة تقريباً(١). وقد اشتهروا بشجاعتهم في كل سوريا، وعند الحاجة تصدر الأوامر الى جميع القرى بالاستعداد للمسير ضد الأعداء. والوحدة الدينية تكاد تكون هي الرباط الوحيد لاتحادهم السياسي، وأشار الدبلوماسي الفرنسي (Paradis)(٢) بأنه شاهدهم يقاتلون بترتيب ونظام، مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً. ويخضع هؤلاء المشايخ لسلطة شيخ أعلى يدعى «شيخ المشايخ»، يقيم في قلعة تبنين، أمنع مواقع هذه البلاد، يجمع الميري منهم ومقدارها مئتا كيس ويدفعها لوالي صيدا، وكان يأتي في الأهمية بعده الشيخ قبلان حاكم مدينة صور. وحين كانت تسوء علاقة هؤلاء المشايخ مع الباشا العثماني، كانوا يتمنعون عن دفع الضريبة ويهددون بالاصطدام مع قواته، وقد نقل الينا القنصل الفرنسي في صيدا صورة لعصيانهم، ومدى ضعف سلطة الوالي عليهم.

«...طلبت من الباشا الحاكم ان ينصفني، لكنه أبدى لي استياءه من تصرف هذا الشيخ المتمرد (أي ناصيف النصّار) الذي يتمنع عن دفع الميري المتوجبة للسلطان...»(٣)

«...أرسل الشيخ (أي ناصيف النصّار) مائة وخمسون فارساً لمصادرة البضائع، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا اذا حاولت منعهم...»(٤)

وتحالف زعماء هذه البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مع قوى محلية تمردت على السلطة العثمانية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (ظاهر العمر وعلي بك الكبير)، فانزلوا معاً هزائم مذلة بقوات كل من والي دمشق وأمير جبل الدروز يوسف الشهابي، لكن مالبث هؤلاء الزعماء أن سقطوا الواحد تلو الآخر.


احمد باشا الجزار يصدر حكما في احد القضايا.

أحمد باشا الجزار والي صيدا

وبنهاية الشيخ ظاهر العمر في أواخر آب (أغسطس) سنة ١٧٧٥ استولى الأميرال العثماني حسن باشا على عكا وحكمها بنفسه، ومع اقتراب عواصف الخريف فكر الأخير في سلامة أسطوله الراسي في ميناء حيفا الغير أمين. وفي هذه الأثناء وصل الى عكا محمد باشا العظم، واقترح على الاميرال جعل ميناء عكا تابعاً لادارة والي صيدا، وكاد أن يتم ذلك لو لم يصل أحمد(*) بك الجزار الى عكا في التاسع عشر من أيلول (سبتمبر)، فسلمه القبطان بنفسه ادارة المرفأ وجعله محافظاً للمدينة، ولم يكن يحمل في ذلك الوقت رتبة الذيلين (*)، وعين الأميرال والياً على صيدا محمد ملك باشا.

وعند استلام محمد ملك باشا مهام ولايته الجديدة، حاول ان يجمع الميري المفروض على جبل عامل، لكن مشايخ هذه البلاد امتنعوا عن اعطائه سوى ما كانوا يدفعونه سابقاً، وهو أقل بكثير مما طلب منهم. وظلت المنطقة الواقعة خلف عكا في الداخل، وأغلب الجليل تحت سلطة أبناء ظاهر، وخشي السلطان العثماني ان يبقى الميناء في عزلة عن المناطق الداخلية، فقرر توسيع وظيفة الجزار وترقيته الى رتبة أعلى.

وفي الثامن عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٧٥ نقل محمد ملك باشا الى ولاية مرعش، وحضر بعد ذلك بيومين فرمان بترقية الجزار الى رتبة بيلر بك ولاية صيدا (أي باشا بذيلين)، وبدلاً من ان يحضر ليقيم في مدينة صيدا، أرسل اليها متسلماً من قبله، في حين بقي هو في عكا وجعلها مركزاً للولاية.

ما هي الأسباب التي دفعت الوالي الجديد الى التخلي عن مدينة صيدا، التي تعاقب جميع الباشاوات الذين حكموا الولاية، على الاقامة فيها وادارة الحكم منها منذ تاريخ انشائها؟

الواقع ان أحمد باشا الجزار كان على معرفة تامة بما يصيب الولاة العثمانيين، حين تشعر الدولة بأنهم قد أثروا وأصبحوا يشكلون خطراً

عليها. ونظراً لأنه كان قد قرر في قرارة نفسه، ان يحتفظ بمنصبه بارادة الباب العالي أو رغماً عنه، وبما ان عكا كانت منيعة الجانب نظراً لما أقامه فيها ظاهر العمر من أسوار وتحصينات ومدفعية، في حين كانت صيدا مهددة من كل الجوانب وبدون تحصينات، فهي لا تتناسب مخططات الباشا، فاختار الأولى لتكون لادارة الولاية.

وما لبث ان رقي الجزار الى رتبة الذيل الثالث، وامتلأت خزائنه بالمال وأمن القوة العسكرية اللازمة لفرض هيبته على رعاياه، فلم يبق أمامه سوى هم واحد وهو التخلص من أبناء الشيخ ظاهر العمر، فقد كان يشعر بأنه ما دام هؤلاء أحرار فلن يجد الراحة. وكانوا قد حاولوا ان يفرضوا حصاراً اقتصادياً على عكا، فمنعوا وصول المؤن اليها من البر، لعل ذلك يدفع الجزار الى التخلي عنها لكن الأخير صمد. وحين عين والياً على صيدا أصبح شرعياً سيد الجليل، وكان على يقين تام بأنه اذا لم يتخلص من أبناء ظاهر فستظل سلطته اسمية.

وبدلاً من ان يجهز حملة مباشرة لتصفية اخصامه هؤلاء، سعى الى اضعافهم عن طريق التفرقة فيما بينهم، بالرغم من ان ذلك مخالف لأوامر الباب العالي، وحاول أن يكسب بعضهم الى جانبه، عن طريق الخداع والمسالمة والصداقة والعروض السخية، وسمح لهم ولأنصارهم بدخول عكا والخروج منها ساعة يشاؤون، بل ذهب بعيداً الى حد الاعتراف رسمياً بهم حكاماً على المناطق الخاضعة لهم.

وكان الشيخ علي ظاهر العمر هو العقبة الكؤود التي واجهت الجزار، فقد كان من أقدر المحاربين ويقود قوات كفوءة وتثق به، وقد انتصر بها في معارك عديدة. وتأكد للباشا بأنه لن يتمكن من ان يكون سيد ولايته ما لم يتخلص من هذا الشيخ، وتمكن بوسائل متعددة ان يجرد الأخير مساندة أخوته، وفي شهر حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٦ كتب الجزار الى الباب العالي يبلغه بان عثمان وأحمد وسعيد، قد استجابوا لنداء الأمان.

وبعد ان جرد الجزار الشيخ علي الظاهر من مساندة اخوته، سعى الى كسب مشايخ جبل عامل نظراً لما يتمتع به هؤلاء من قدرة قتالية، فانتقل الى مدينة صور واجتمع الى حاكمها حمد العباس، ثم حضر اليها ثانية واجتمع مع الشيخ ناصيف النصّار، ويبدو بأنه قد تصالح مع العامليين في هذه الاجتماعات، ودليلنا على ذلك مرافقة هؤلاء للباشا في حملته التي كان يستعد لها.

وبتخلص الجزار من خطر الشيخ المذكور، شعر بأنه لم يعد بحاجة الى باقي أخوة الأخير الذين تعاونوا معه، فقبض عليهم وسجنهم مع أولادهم ونسائهم ثم تخلص منهم تباعاً. وحين رأى العامليون ما حلّ بأبناء ظاهر العمر، توقعوا ان تكون الحملة التالية على بلادهم، فانسحبوا اليها وحشدوا حصونهم بالمقاتلين والأسلحة واستعدوا للقتال. وبالفعل فقد صدق حدسهم، فما لبث القبطان حسن باشا ان قرر الاستفادة، من الرعب الذي ألقاه جنوده وبحارته في بلاد الشام، لتحصيل الأموال الأميرية المتأخرة المستحقة للدولة. فاتفق مع والي صيدا بتجهيز حملة على جبل عامل، لتهديم قلاعه وحصونه وجمع الميري من ملتزميه. لكن مشايخ الجبل اتفقوا على تجنب العاصفة القادمة، التي قد تسبب في تدمير ونهب بلادهم والقضاء عليهم، فقرروا مفاوضة الأميرال العثماني.

وخشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ظاهر العمر، اذا حضروا لعكا للتباحث حول شروط الصلح، تطوع الشيخ قبلان للقيام بهذه المهمة، فقدم الى عكا بالنيابة عن باقي المشايخ ونجح مسعاه في الوصول الى الاتفاق التالي.

أولاً ــ ان يقف زعماء جبل عامل على الحياد بين المتنازعين على النفوذ في المنطقة.

ثانياً ــ ان يدفعوا الميري بصورة منتظمة وتقسيط المتأخر منها على الشكل التالي

(أ) أن يفوا فوراً أي في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٧٦ مبلغ ١٥٠ كيساً(*).

(ب) أن يدفعوا ١٥٠ كيساً خلال سبعة أشهر و ٣٠٠ كيساً خلال سنة ١٧٧٧.

ورضي الأميرال عن هذه الاتفاقية، ووجدت هوى في نفسه وحفظت ماء وجهه، لأنه كان يخشى مهاجمة جبل عامل، نظراً لانتشار القلاع والحصون في ربوعه، وما عرف عن سكانه من

شجاعة وفروسية ومهارة في القتال وتعلق بالحرية. وفكر بأنه قد يلاقي نجاحاً أكثر مع أمراء ومشايخ جبل الدروز، وطلب من زعماء عاملة الاشتراك بقواتهم في تلك الحملة. لكن هؤلاء اعتذروا للأسباب التالية:

أولاً ـ وجدوا ان مصلحتهم تقضي بأن يبقى جبل الدروز متمرداً على الوالي، فخضوع وولاء هذه البلاد للسلطة، سوف يؤدي بهم الى العودة لحياة الكر والفر، التي كانت سائدة قبلاً في النصف الأول من القرن الثامن عشر بين جبل الدروز وجبل عامل، حين كان ولاة صيدا يحرضون الأمير الشهابي الحاكم الزحف على قرى عاملة، كلما امتنع سكانها عن تلبية طلبات الباشا الابتزازية. فاذا تمكن العامليون في ذلك الوقت من الصمود، ومنعوا أمراء ومشايخ جبل الدروز من تحقيق أي نصر نهائي، فمرده الى عدم وجود اي خطر قائم على حدودهم الجنوبية، لأن ظاهر العمر كان في ذلك الوقت منهمكاً في اقامة دولة قوية في الجليل، ثم ما لبثوا ان تحالفوا معه.

ثانياً ـ تبدل الوضع على حدود جبل عامل الجنوبية، فقد أقام الجزار دولة قوية مرهوبة الجانب، تمكنت من تدمير دولة ظاهر العمر أعني أعتى قوة سياسية في بلاد الشام خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر.

ثالثاً ـ الاشتراك في الحملة المرتقبة على جبل الدروز يحتاج الى مصاريف باهظة، هم في غنى عنها الآن لأنها لن تعود عليهم بالنفع، بل بالعكس سوف تؤدي الى مضاعفة نفوذ والي صيدا.

رابعاً ـ كانوا على ثقة تامة ان نجاح حملة الباشاوات على جبل الدروز، وارتفاع هيبة والي صيدا سوف تدفعه الى اجتياح جبل عامل، وفرض سيطرته على هذه المنطقة الفتية.

ويبدو ان الباشاوات قد قبلوا هذا الموقف السلبي من المشايخ العامليين، ولم يلحوا عليهم في طلب المساعدة، كما لم يحاولوا تأديبهم على تصرفهم هذا بانتظار فرصة أنسب. وذلك لاضطرارهما الى نقل الجانب الأكبر من قواتهما الزاحفة على جبل الدروز عبر بلاد عاملة، ومن الضروري عدم عرقلة سيرها أو التصدي لها في تلك البلاد الوعرة. فقبلا اعتذار المشايخ العامليين، واكتفاؤهم بالوقوف على الحياد في الصراع المقبل، وعدم التصدي للقوات المتنقلة في بلادهم الى جبل الدروز.

وبالفعل فقد احترم العامليون تعهدهم، وسمحوا للقوات الغازية بالانتقال من عكا عبر جبل عامل الى صيدا، ولم يعترضها أحد من سكانه وأقام أحمد باشا الجزار معسكراً عند مدخل المدينة. ثم ما لبث ان حضر اليها القبطان بحراً في ٣ آب (أغسطس) ١٧٧٦، وكتب الى الأمير يوسف يطالبه بالميري، واستطاع الأخير بعد مصاعب شاقة ان يؤمن له المبلغ وانتظره في بيروت، لكن عساكر الجزار استولت على المال، ونهبت وذبحت عدداً من سكان المدينة، فأثار ذلك غضب القبطان حسن باشا ويؤكد الذين شاهدوه، بأنهم لم يشاهدوا انفجار غضب يشبه ذلك الانفجار. ونظراً لأنه لم يعد بامكانه العودة الى عكا واجبار الوالي تسليمه المبلغ، فقد استدعى الأمير يوسف وترك له الأخير حملاً من الحرير قدرت قيمته بحوالي المليون ليرة فرنسية.

اقتتال في يارون

وشهدت الفترة الممتدة من (١٧٧٦ ـ ١٧٨١) سلسلة من الفتن الداخلية في جبل الدروز، استفاد منها مشايخ جبل عامل فامتنعوا عن دفع الميري المتوجبة على بلادهم، وتعدوا على القوافل التجارية التي كانت تجتازها من صيدا في طريقها الى فلسطين وبالعكس، فصدر فرمان سلطاني الى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل وتدميره للأسباب التالية:

١ ـ تمردهم أيام ظاهر العمر (تعاونهم مع علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب)، ومشاركتهم في الحملات على والي دمشق (دورهم في هزيمة عثمان باشا الكرجي على جسر بنات يعقوب).

٢ ـ غزواتهم على منطقة دمشق اذ هاجموها بقوة مؤلفة من ٣٠٠ الى ٥٠٠ خيال.

٣ ـ امتناعهم عن دفع الميري بالرغم من تعهدهم السابق بدفعها سنوياً.

٤ ـ الاستيلاء سابقاً على أماكن متعددة من ولاية صيدا مثل شفا عمر وحيفا وعكا.



علي بك الكبير.

وكان الجزار قد ازدادت ثقته بالتعامل معهم بحزم، فقرر الاستفادة من الفرمان المذكور لتحقيق عدد من المكاسب.

أولاً ــ تعزيز مركزه وزيادة قوته عما كانت في السنوات السابقة، واقامة حكم مركزي فعال في الولاية.

ثانياً ــ عدم استمرار بقاء مراكز قوى مستقلة، وحكم ذاتي في المنطقة يعيق خططه تلك.

ثالثاً ــ تحقيق مكاسب مادية، بالسيطرة على بلاد جبل عامل الغنية بمواردها الزراعية واحتكار تجارتها والاستيلاء على ثروات وكنوز مشايخها.

ونظراً لما يعلمه عن مدى شجاعة وكفاءة السكان القتالية، ووعورة البلاد وما تتضمنه من حصون وقلاع، قرر تجهيز حملة قوية قادرة على تحقيق آماله. فجمع قوة تقدر بحوالي الثلاثة آلاف رجل، وجعلها بقيادة معاونه سليم نظراً لأن الباشا لا يعرض حياته في مغامرة خطرة غير مأمونة العواقب.

وفوجىء الشيخ ناصيف باجتياح قوات الجزار لبلاده، فخرج على رأس ألف فارس للتصدي للحملة، والتقى بالعساكر المهاجمة عند قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة، وجرى اقتتال بين الفريقين في ٢٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٨١ انتهى بمقتل الشيخ العاملي وحوالي ثلاثمائة الى أربعمائة من مقاتليه، من بينهم أخوه الفارس أحمد وعدد من القادة في حين خسر سليم باشا ثلث قواته، ثم تقدم الأخير بعساكره في بلاد بشارة لتحطيم القلاع السبع الرئيسية فيه (هونين وتبنين ويارون وميس وصربا وجباع وشمع). واستولت العساكر على ميناء صور.

وخشي مشايخ جبل عامل ان يتعرضوا للذبح والقتل والاهانة عند توغل قوات الجزار في بلادهم، ففروا بعيالهم وأنصارهم واختفى

بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل الحرفوش، والبعض الآخر في بلاد عكار لدى محمد بيك المرعبي (الأسعد)، وقدم اثنان منهم الطاعة للجزار، في حين صمد الشيخ حيدر الفارس برجاله الستمائة في قلعة الشقيف، وفشلت جميع جهود الجند لاحتلال تلك القلعة.

وعادت قوات الباشا وهي تحمل معها ثروات هائلة، جمعوها من مقتنيات مشايخ وسكان جبل عامل التي خضعت لهم وسبى الجند النساء والأطفال وباعوهم في الأسواق للراغبين في الشراء. كما نقلوا كميات كبيرة من مؤلفات ومخطوطات نادرة، كان قد وضعها علماء تلك البلاد، الذين غادروها عقب تعرضها للاحتلال، وتوجهوا الى البلاد الإسلامية النائية كالهند وايران وأفغانستان. فقدموا بتعاليمهم خدمات جلّى إلى الإسلام والشيعة الامامية.

وكان فرح الجزار كبيرا بنجاح حملته، نظراً لأن هذه العملية سوف تكسبه مكانة ونفوذاً في الأستانة وفي ولايته، لأنه أخضع واستولى على منطقة استعصت على معظم ولاة صيدا، كما أصبح سيد بلاد مزدهرة وأراضي خصبة غنية. تضم مدينة ومرفأ صور التجاري التي غادرها جميع سكانها، حين علموا بالنكبة التي حلت بالشيخ ناصيف النصار، خشية أن تأتي قوات الباشا وتحتل المدينة، ويصيبهم مايصيب عادة البلاد التي تحتاجها قوات الجزار، من قتل وذبح ومذلة ونهب.

وشعر والي صيدا أنه لن يستفيد من أهمية هذه البلاد الاقتصادية، مالم يبادر الى إعادة سكانها لكي يقوم بحمايتها واحتكارها، لأنها سوف تملأ خزائنه بما سيجمعه من ثرواتها. فحضر الى صور لكي يؤكد بشخصه، بقاء كل مايخص زعماءها، وتأمين ممتلكات السكان. وأشارت الى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بقولها.

«...أذاع هنا وفي كل الأمكنة التي لجأوا اليها، أن بامكان جميع الذين خرجوا العودة الى صور دون خشية أو خوف، سواء منه او من أي شخص آخر...»(٥).

واستبدل الباشا مشايخ مقاطعات جبل عامل الذين فروا من البلاد بمتسلمين مؤقتين من قبله، لأنه من سياسته عدم ابقاء أحد مدة طويلة في المراكز ذات الأهمية، وزودهم بوحدات عسكرية قادرة على السيطرة بفعالية على القرى، وعامل هؤلاء المتسلمين رعاياهم بقسوة لانتزاع الدراهم التي قد تكون معهم.

وأظهر السلطان العثماني رضاه الكامل عن عملية تدمير مشايخ عاملة، وأرسل للجزار أحد موظفيه ومعه هدية مكونة من سيف وخلعة ثمينة، لكن مظاهر الشرف هذه لم تجعله بعيداً عن مطالبة الباب العالي له، بتأدية الحساب عن الثروة التي استولى عليها في هذه الحملة.

وقد انعكس تأثير هذه الحملة على تجارة الفرنسيين في صيدا، وسببت في بروز عاملين متناقضين الواحد للآخر.

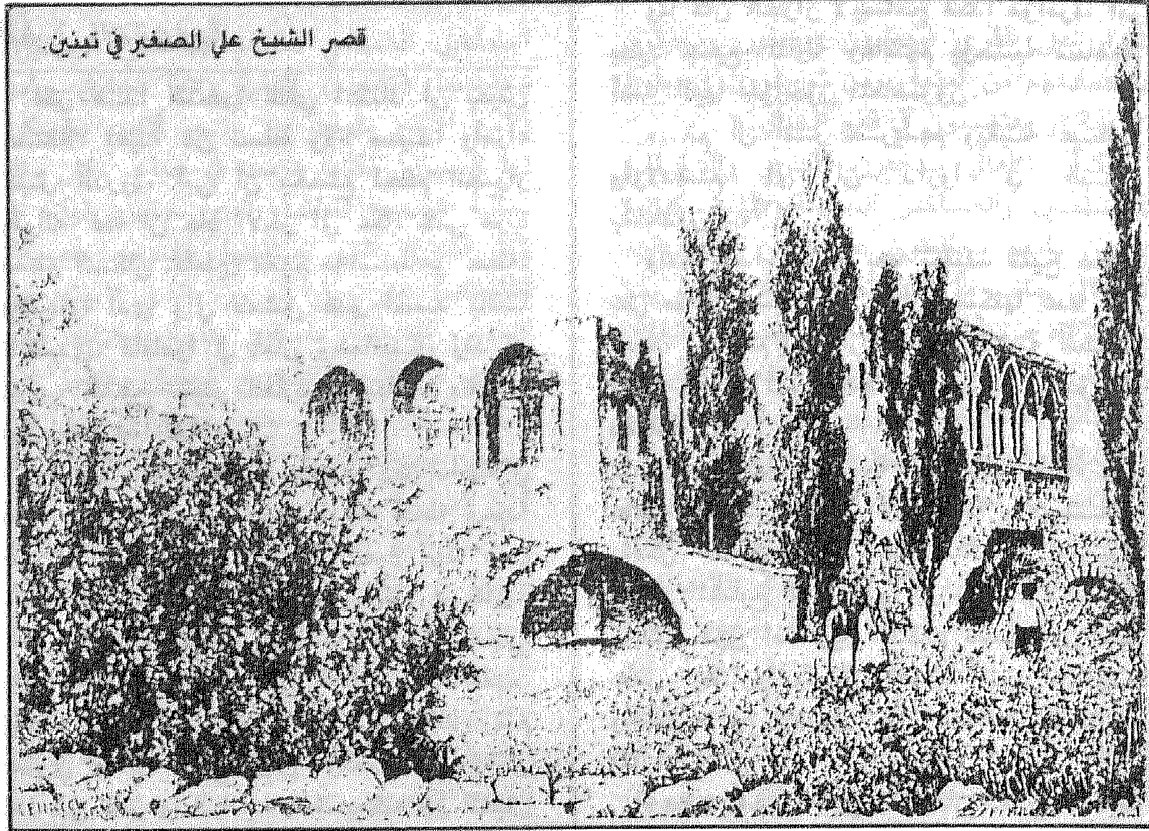
١ ــ تقلص حجم التجارة الفرنسية في تلك البلاد، ولم يعد يجني التجار الفائدة نفسها التي كانوا يحققونها، من استهلاك المشايخ لكميات كبيرة من الأقمشة والسلع الأخرى، ولم يعد بامكان التجار ان يبيعوا شيئاً بعد هرب هؤلاء.

٢ ــ زادت قيمة القطن المغزول المرسل الى فرنسا، وصدّر التجار الفرنسيون في سنة ١٧٨٢ خمسمائة بالة زيادة عن السنة التي قبلها، لأن أحداً ممن تبقى من السكان لم يعد يجرؤ ان يبدو عليه أي مظهر ثراء، كما غادر البلاد عدد كبير من المشايخ الأثرياء، ورافقهم في هروبهم عائلاتهم واتباعهم خوفاً من الاهانة.

حصار قلعة الشقيف

وبتركيز الجزار لسلطته في مقاطعات جبل عامل، عاد ووجه عساكره لتفرض حصاراً على قلعة الشقيف التي كان معتصماً بها الشيخ حيدر الفارس مع أتباعه، وبالرغم من القصف المدفعي الذي كانت تتعرض له القلعة، فقد صمد الشيخ شهراً كاملاً. ولم تستطع عساكر الباشا تحقيق أي كسب، بسبب رداءة القنابل المستعملة وجهل المدفعجية بأصول استخدام سلاحهم، وشجاعة المحاصرين الذين أبدوا بسالة فائقة في الدفاع عن أنفسهم، خشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ملتهم.

وحين فشلت خطة الباشا لاحتلال القلعة


قصر الشيخ علي الصغير في تبنين

بالقوة، سعى الى تحقيق ذلك بالوعود المغرية للأسباب التالية.

١ ــ خشي ان تطول فترة الحصار أكثر، وما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة.

٢ ــ صمود العامليين فترة أطول يؤدي الى ازالة الهيبة والمكانة والخوف، التي كان يثيرها اسمه في ولاية صيدا، بعد احتلاله حصن دير حنا(*)، وانتصاره على الشيخ ناصيف النصّار في معركة يارون.

٣ ــ خطر بقاء قواته في هذه البلاد المعادية له، واقتراب فصل الشتاء وما يصحبه من برد قارس في هذه المنطقة الجبلية.

٤ ــ من مصلحته أن يتم تسليم الحصن عن طريق المفاوضات، ليضمن سلامة محتوياته من نهب قواته فيما لو سقط عنوة، لأنه كان يعلم ان القلعة تحوي ثروات هائلة وضعها فيها العامليون، لانقاذها من أعدائهم نظراً لمناعتها.

وقد أكد هذا الاعتقاد الأخير سلوك الباشا، الذي حضر شخصياً الى الشقيف في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨١، عندما أكدوا له بأن المحاصَرين مستعدون أن يستسلموا له شخصياً، مما سبب في تذمر قواته التي كانت تمني النفس، بأنها كما اعتادت ستكون مكافأتها القيام بنهب ما تجده.

واستسلم الشيخ حيدر الفارس ورجاله وسلموا الحصن للباشا، وكان يقيم فيه ما يقارب ثلاثماية عائلة أظهر الجميع لهم الاحترام عند خروجهم، وأعطى والي صيدا تعليمات صارمة بعدم إذية أي فرد من المستسلمين، بحيث أن أحداً منهم لم يتألم من أي شيء. واقطع للشيخ واتباعه الذين كانوا معه من سكان القرى المجاورة للشقيف والتي كانت قد تدمرت كلياً ــ اقطاعاً ليعيشوا فيه ويكون لهم كملك. وقد اتبع هذه السياسة السلمية ليضمن تأهيل المنطقة بالسكان، وزراعة الأرض الخصبة التي تحولت الى بور، بسبب الهجرة الجماعية التي نفذها الأهالي بعد اقتتال يارون، وبالتالي ستعود عليه بفوائد اقتصادية عظمى.

الفرق الانتحارية

لكن هذا الشعب الذي اعتاد ان يعيش مستقلاً، بعيداً عن تسلط ولاة صيدا وأمراء جبل الدروز، أبى أن يخضع لحكم الجزار وقواته. فما ان عاد الآخر الى عكا، حتى هرب معظم السكان حاملين معهم ما استطاعوا حمله، والتجأوا لدى والي دمشق عدو أحمد باشا التقليدي، فأقاموا في أمان وطمأنينة، وقد تم هروب الشيخ حيدر الفارس واتباعه، بتفاهم سري مع هذا الباشا.

وفي هذا الوقت كان الجزار قد ركز سلطته في مدينة صور، ووجد شيخ المدينة نفسه وحيداً بعد فراره منها، وانقطع كل اتصال بينه وبين عائلته واتباعه، فاضطر ان يدخل في طاعة الجزار. فأمنه الأخير واستقبله بحفاوة لتشجيع باقي المشايخ واتباعهم على العودة الى مناطقهم، ومنحه التزام قرى بالقرب من صور مقابل رسم سنوي مقداره ألفي قرش، وكانت هذه القرى تدر على ملتزمها الجديد دخلاً يمكنه من العيش بيُسر.

ومع ذلك فقد ظل هذا الشيخ مع سكان اقطاعه، يترقبون الفرصة المناسبة لنيل حريتهم والتخلص من الجزار، والعودة الى حكم بلادهم بأنفسهم كما كانوا سابقاً. وظنوا أن حلمهم بات وشيك التنفيذ، حين بدأت تنتشر في بلاد عاملة اشاعات، بأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية لتدمير الجزار، وصار السكان يتصورون ان عزل الباشا سيتم بين لحظة وأخرى.

وفي اليوم الثامن من أيار (مايو) ١٧٨٢ مرّت من أعالي شاطىء مدينة صور، البارجة الفرنسية الملكية (Auror) يرافقها سبعة عشر مركباً تجارياً. فظن العامليون أنها حملة القبطان المزعومة، فأعلنوا عن فرحتهم بدون تحرز، واتفق الشيخ مع جميع أبناء ملته للانقضاض على قوات الجزار الموضوعة في جبل عامل، عند أول نبأ عن نزول الأميرال في عكا. ولكن وصلت أنباء هذه المؤامرة الى مسامع الباشا. فعزل الشيخ واقتيد مع أعوانه مكبلاً بالحديد الى عكا، ووضعهم على هذه الحالة في أحد سجونها.

ولما كان الجزار لا يسامح هكذا مؤامرة، أمر بطرد جميع المتاولة وعاملهم بوحشية متناهية، أشار اليها المؤرخون المعاصرون.

«...ثم آل أمر حريمهم وبقية عيالهم وأولادهم الى ان داروا في البلاد يشحذون...»[٦].

وامتد هذا التدبير بعد توقيف شيخ صور، على متاولة صيدا التي كان يسكنها عدد كبير منهم، لكنه لم يلبث ان أعادهم خشية استنكار الباب العالي لهذا العنف نحو شعب لا حول له ولا قوة.

ورغم النكبات القاسية التي نزلت بأبناء جبل عامل، فقد أبى هؤلاء الاستكانة والاستسلام، وتمكن الشيخ فارس ناصيف النصّار واخوته وباقي المشايخ الذين فروا الى بعلبك وعكار، من تشكيل فرق انتحارية أخذت تتسلل الى جبل عامل، وصاروا يكمنون لعمال الجزار وجنوده، ويفتكون بهم ويغيرون على القوافل التجارية المارة.

وعرفت هذه الفرق الانتحارية لدى العامة باسم «طياح» أي قطاع الطرق، وكانوا يطلبون من البلاد مال الميري والذخائر والمؤن، فالقرية التي تدفع المطلوب فيها تسلم من اذيتهم وشرهم، والتي تتردد في ذلك أتوا إليها ليلاً ونهبوها وقتلوا مشايخها، ثم يختفون بسرعة قبل قدوم العساكر.

وفشلت جميع محاولات الجزار للايقاع بهؤلاء الطياح، وأقام مراكز عسكرية كثيرة كانت تدعى «السردلة» أرسلها للبحث عنهم في بلاد عاملة لكنها كانت تعود خائبة. ثم عين عساكر من العامليين أنفسهم، ومع ذلك لم يجده ذلك نفعاً، لانهم حين كانوا يحضرون للبحث عن المشايخ العصاة، يكون هؤلاء قد انتقلوا الى مناطق أخرى وعرة أو الى اطراف البلاد، في حين يكون جنود الجزار في أول البلاد. وأشار الى ذلك المؤرخ ابراهيم العورة بقوله .

وقد عانت بلاد عاملة كثيراً من هجمات أولئك الطياح، لأنها وقعت بين نارين نار متسلمي الجزار وجنوده ونار الثوار. فكان الباشا يرسل متسلميه وجنوده السردلة لملاحقة العصاة، فيعيثون في البلاد فساداً ويضيقون على السكان، ويغير

الثوار على القرى فيسلبون وينهبون ويحرقون مايصادفهم من أمتعة، ومن ثم يفرون في بطون الأودية او يعتصمون في قمم الجبال.

وكان الأهالي يدفعون الميري والذخائر للمتسلمين والعساكر السردلة، الذين كانوا يدّعون بأنهم يحافظون عليهم من التعديات، هذا الى جانب ماكانت تعانيه البلاد التي يمر بها هؤلاء من أعمال السخرة ومصادرة الغلال والمواشي والدواب. كما كانوا يدفعون الميري والذخائر للمشايخ المذكورين وأتباعهم، بحجة ان البلاد بلادهم وأهاليها عبيد لهم.

وبعد ان أخضع الجزار جبل عامل، وأقام ضباطه حكاماً على مقاطعاته، وحكم تلك البلاد حكماً مباشراً، ازدادت مكانته في الأستانة. فصدرت إليه أوامر سنة ١٧٨٤ بتجهيز حملة لتدمير دولة المماليك في مصر، على اعتبار أنه الوحيد القادر على تنفيذ هذه المهمة، نظر لثرائه الفاحش وكفاءة ووفرة قواته. وفي الوقت نفسه الذي تلقى فيه تلك الأوامر، وصلته رسائل من المماليك ينذرونه فيها، بتنفيذ تعهداته والتمرد معهم ضد السلطان العثماني. ولكن الجزار تمكن من التخلص من هذا المأزق، بايهام كلا الطرفين بحدوث تطورات في ولايته، تستدعي عدم مغادرته لها.

فسعى الى اثارة حرب أهلية في جبل الدروز، عن طريق التفرقة بين ذوي النفوذ فيها، أو التلويح للطموحين في الأسرة الشهابية بمنصب الأمير الحاكم، أو عن طريق اثارة الكراهية والعداء فيما بينهم بمختلف السبل والوسائل. ووجد في ذلك فرصة لتحقيق عدة أهداف كان يتطلع الى تنفيذ بعضها، منذ ان أوكلت اليه مسؤولية الولاية.

١ ــ خداع السلطان والحفاظ على صداقته مع مماليك مصر.

٢ ــ التغلب على مشكلة وعورة الجبل وصعوبة اختراقه.

٣ ــ تنفيذ حلمه القديم بالقضاء على نفوذ أمراء ومشايخ جبل الدروز، وجعل ضباطه متسلمين على مقاطعاته.

ونجح الجزار باثارة العداء بين ملتزم جبل الدروز الأمير يوسف الشهابي وخاله الأمير اسماعيل الشهابي متسلم مقاطعتي مرجعيون وحاصبيا التابعتين لإدارة ولاية دمشق، وأمد الأمير الأخير بقوات من عنده، أقامت معسكراً لها في جزين لكنها هزمت في جباع. وكان ذلك بمثابة الصدمة للباشا، الذي لم تهزم قواته في كل المعارك التي خاضها، ففرض حصاراً اقتصادياً على جبل الدروز، الذي لاينتج من الحبوب الغذائية مايكفي حاجة سكانه، لعله يتمكن عن طريق التجويع تحقيق ماعجز عنه عسكرياً أي بتأليب جميع رعايا الجبل على أميرهم حين يشعرون بالجوع، وبالتالي الضغط عليه لقبول شروط الباشا.

ولم يكتب لهذه السياسة النجاح مما دفع الباشا في الأول من حزيران (يونيو) ١٧٨٤ الى تسيير قواته ورجال الأمير اسماعيل نحو جبل الدروز، وماكادت تلك العساكر تتوغل وتقيم لها معسكراً، حتى جاءها امر بالانسحاب فوراً، وسيرها الباشا الى جبل عامل الذي ازداد فيه نشاط الثوار.

فقد استغل الطياح انغماس الجزار في القتال الدائر بين امراء آل شهاب في الشوف، وسحبه أعداداً كبيرة من قواته المتواجدة في بلاد عاملة لمساندة حليفية الأميرين الشهابيين اسماعيل وسيد أحمد. فزادوا من غاراتهم وهجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم، وتشجع فتيانهم الذين فروا الى دمشق فحضر حوالي ستمائة فارس منهم، وشكلوا مع الطياح قوة مهاجمة انضم اليها حوالي ألف من فلاحي جبل عامل. وشجعهم الأمير يوسف الشهابي وتحالف معهم، وسهل امدادهم بالسلاح والمؤن والمقاتلين.

وتقدم الشيخ عقيل ناصيف النصّار ومعاونه مرعي فدوني، بهذه القوة في الجبال المؤدية الى قلعة تبنين، وكان هدفه استخراج الثروة التي كان قد تركها والده مطمورة تحت شجرة في الحصن، وكانت قد فشلت جميع جهود الجزار للعثور عليها.

وفوجيء الشيخ الشاب بوجود قوة مسلحة من المغاربة، كان قد تركها الباشا في القلعة لحفظ الأمن في البلاد المجاورة، فأفنى تلك القوة ونقل الكنز الى مكان أمين. ولم يقتل من رجاله

سوى أربعة، ثم غادر القلعة بعد ان ترك فيها حامية من رجاله، وأحرق ونهب عدة قرى وتابع زحفه نحو عكا.

وأصيب الجزار بالهول حين ترامى اليه، النصر الذي أحرزته قوات الطياح في تبنين، وخشي من انتفاضة سكان جبل عامل والتفافهم حول الشيخ الشاب. مما قد يؤدي الى استقلالهم وتعرض قواته للفناء، نظراً للتحالف القائم بين العامليين وأمير جبل الدروز، ومايلي ذلك من قطع الامدادات عن عساكره التي تقاتل في الشوف. فقرر اخماد الفتنة في مهدها، والحيلولة دون ازدياد نفوذ متمردي جبل عامل بين ابناء ملتهم، وبالتالي تدهور مكانته بين رعاياه.

أنكر أحمد باشا تعرض قواته للهزيمة في تبنين، وأطلق في الأول من حزيران (يونيه) ١٧٨٤ مدافع قلعة صيدا، احتفاء بانتصار جنوده على عصاة جبل عامل. وأغلب الظن بأنه تصرف على هذا الشكل لتأكيد نفي الهزيمة، اذ لا يعقل أن تتحرك عساكره من معسكرها على بعد ساعة من صيدا، وتتوجه الى بلاد عاملة وتحارب الطياح وتنتصر عليهم في خلال ساعتين قبل حلول الظلام.

وعند الساعة الرابعة من مساء الأول من حزيران (يونيه) سنة ١٧٨٤، أصدر أمراً الى القوات التي كان قد سيرها في ذلك اليوم لاجتياح جبل الدروز، بالانسحاب وأرسلها من جديد الى جبل عامل. واضطر الأمير اسماعيل الشهابي العودة باتباعه الى صيدا، وقصف الباشا أربعة قرى عاملية ودمرها تدميراً كاملاً، كما تمكنت قواته من الانتصار على الطياح. وفي الثاني من حزيران (يونيه) عرض الباشا رؤوس القتلى المتمردين خارج أبواب المدينة، كما أمر بخوزقة أحد الزعماء العامليين. وقد تصرف بهذا الشكل لتحقيق هدفين مهمين في تثبيت سلطته.

١ ــ اثارة الرعب والخوف لدى سكان الولاية، فلايجرؤ أحد على مخالفة أوامره لأن ذلك سوف يكون مصير كل متمرد.

٢ ــ ترهيب أنصار الأمير يوسف فيتخلون عن نصرته.

وبعد أن أعاد النظام في جبل عامل، ترك والي صيدا جانباً من القوات التي أرسلها الى هناك للحفاظ على الأمن فيها وسحب ماتبقى لاستخدامه في حملة جديدة على جبل الدروز المتمرد عليه، وعزل الأمير يوسف الشهابي وأقام عمه الأمير سيد أحمد وخاله الأمير اسماعيل كحاكمين على تلك البلاد، رغم معارضة جميع السكان واعتبارهم الأميرين المذكورين كمغتصبين للسلطة. وتوقع القنصل الفرنسي في صيدا ان تفشل الحملة اذا استمر مشايخ الجبل متّحدين.

«...سوف يصدونه اذا استمروا متحدين...»(٧).

وشعر أحمد باشا الجزار بأنه لن يتمكن من تحقيق مايصبو اليه، واذا عاند واستمر عدوانه فسوف يواجه مخاطر ومضايقات كثيرة وذلك للأسباب التالية.

١ ــ ضآلة حجم قواته البالغ عددها أربعة آلاف جندي.

٢ ــ ضخامة عدد مقاتلي الأمير يوسف البالغ عددهم عشرين ألف مقاتل.

٣ ــ اتحاد أخصامه واندفاعهم للدفاع عن مقاطعاتهم باخلاص وحُسن نية.

٤ ــ صعوبة التوغل في تلك البلاد المغطاة بالجبال العالية، والتي تخترقها الأودية الوعرة.

فتخلى عن مشروع اخضاع جبل الدروز بالقوة، وسعى الى استعمال الحيلة عن طريق استقطاب بعض الزعماء من ذوي النفوذ. ونجحت خطته هذه واضطر الأمير الحاكم يوسف الشهابي الى التخلي عن الالتزام لصالح خاله الأمير اسماعيل وعمه الأمير سيد أحمد على ان يحكما معاً، وتعهد الأميران المذكوران ان يدفعا بالتقسيط للجزار ألفاً وثلاثماية كيس. وبالطبع فان مبلغاً كهذا سوف يجبى من السكان عن طريق استحداث ضرائب جديدة، لكن أمراء ومشايخ الجبل رفضوا دفعها، وفشلت كل الجهود التي قام بها الحاكمان بالرغم من مساندة الجزار لهما.

فاستجاب الأخير لنصائح مستشاريه وأعاد في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨٤ الأمير يوسف الشهابي، ملتزماً على جبل



الأميرال العثماني حسن باشا قيصرتي.

الدروز بالاضافة الى مقاطعتي حاصبيا ومرجعيون وفقاً للشروط التالية:

١ ــ يتعهد الأمير بأن يدفع للباشا مقابل التزام البلاد المذكورة مبلغاً مقداره ألف كيس سنوياً.

٢ ــ يتعهد الأمير بأن يدفع بدل الالتزام الذي كان في عهدة الأميرين اسماعيل وسيد أحمد والبالغ قيمته ألفاً وثلاثماية كيس.

٣ ــ ان تقسط الأموال على دفعات مؤلفة من خمسماية كيس كل ثلاثة أشهر.

٤ ــ ان يسترهن الباشا لديه الشيخ سعد الخوري الى حين تسديد كامل المبلغ المقرر.

وفي هذه الأثناء ساد اقتناع بالاستانة بقوة الجزار العسكرية والاقتصادية، وأنه أحد الولاة القلائل القادرين الاعتماد على أنفسهم لتمويل وقيادة قافلة الحج بفعالية. فصدر فرمان آخر يوم السبت في الأول من أيار (مايو) ١٧٨٦ بجعل اثنين من مماليكه سليمان باشا والياً على طرابلس وسليم باشا والياً على صيدا. وأشارت التقارير الدبلوماسية الفرنسية الصادرة عن عكا الى ذلك بقولها.

«...أصبح الجزار سيد سوريا الأوحد، تخضع لأمره البلاد الممتدة من اللاذقية شمالاً الى غزة جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى بادية الشام شرقاً، يحكم هذه البلاد الشاسعة بواسطة ضباط...»(٨).

وكان قد بدأ يسود التذمر والشكوى، لدى مشايخ وأعيان القرى المجاورة لمدينة صور، والخاضعة لحكم ضباط الجزار. وصاروا ينتظرون الفرصة المناسبة للتخلص من حكامهم، والعودة الى حياتهم السابقة للأسباب التالية:

● معاناتهم من ظلم هؤلاء المتسلمين، والضيق الواقع عليهم لاضطرارهم الى دفع

□ مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية في باريس.
عنوانها: ظاهر العمر الزيداني يطلب من القنصل الفرنسي في عكا إبقاء طبيب القنصلية نظراً لإجادته في معالجة الأمراض المنتشرة في البلاد.

الميري والذخاير والمؤن مضاعفة للحكومة والطياح.

● لم يعد لهم أملاك شاسعة يعتاشون منها، ولا يجيدون مهناً للعمل بها، ولا تعودوا ممارسة التجارة، ولا يمكنهم التسول، بل يفضلون الموت على ذلك.

● يتحدّرون من طبقة اجتماعية اعتادت رفاهة العيش، وان تكون حاكمة لا محكومة.

وشعر هؤلاء المشايخ ان انتقال الجزار من عكا الى دمشق، ومن ثم توجهه بالدورة(*) الى منطقة نابلس، فرصتهم التي كانوا يتحينونها لاستعادة سيادتهم على قلاعهم ومقاطعاتهم السابقة. نظراً لتوزع قوات الجزار في ولايات صيدا وطرابلس ودمشق، واضطراره لاصطحاب اعداد وافرة منهم في الدورة. وأشار الى ذلك القنصل الفرنسي في عكا (Regnault) بقوله.

«...الاستفادة من ابتعاد الوزير لاستعادة حريتهم...»(٩).

وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض، تم فيها الاتفاق على الانقضاض على عمال وجنود الوالي في جبالهم، وقرروا ان يستهلوا مخططهم بالهجوم على صور وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها.

ولكن علم سليم باشا بالمؤامرة قبل تنفيذها، فأصدر أمراً الى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وارسالهم الى عكا، وفي اليوم الرابع عشر من أيار (مايو) ١٧٨٥ نفذ الباشا بهم عقوبة الاعدام، فخوزق أربعة وثلاثين منهم على أبواب المدينة، على مرأى من القنصل الفرنسي في عكا (Regnault)، الذي كتب الى حكومته قائلاً:

«...لا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم، الموقوفين كذلك والمتهمين بالتحالف مع المتمردين...»(١٠).

وعلم سيد سوريا بما حدث في صور وجوارها، وكان يستعد للخروج بقافلة الحج من دمشق الى مكة، وكانت جماعة من العامليين، من آل علي الصغير قد فرّت الى مشغرة، وأقامت فيها باذن وحماية الأمير يوسف الشهابي. فخشي ان يستغل هؤلاء فرصة غيابه، وتوزع قواته بين ولايات طرابلس وصيدا ودمشق، ومرافقة عدد من تلك العساكر لقافلة الحج الشامي، فيتوجه هؤلاء المشايخ الى جبل عامل بمساعدة الأمير الشهابي الحاكم، للانتقام لما أصابهم على يد الباشا وقواته. فقرر ان يزيل مخاوفه بالقضاء عليهم عن طريق الأمير يوسف، والفرصة متاحة أمامه الآن نظراً لوجود الشيخ سعد الخوري مربي ومستشار الامير يوسف — مرتهناً لديه، وبذلك سوف يجبر الأخير على

تنفيذ ما يطلب منه، ولن يجرؤ مطلقاً على معارضته خشية تعرض الشيخ سعد لأي أذى، كما يتمكن من تحقيق هدفين مهمين في وقت واحد:

● ضرب التحالف العاملي الشهابي وزرع بذور الفتنة والانشقاق بينهما والحيلولة دون اتحادهما ثانية.

● القضاء على آل الصغير اللاجئين في مشغرة دون أن يتكلف شيئاً.

وقبل خروج الجزار بقافلة الحج أصدر أمراً الى الشيخ سعد الخوري، أن يكتب الى سيده أمير جبل الدروز بالقاء القبض على مضيفيه العامليين، وارسالهم الى والي صيدا سليم باشا. واستجاب الأمير يوسف للأمر وسلم العامليين الى عدوهم، وقد أثار تصرفه هذا استنكار المعاصرين، لأنه يتنافى وتقاليد المنطقة التي تحث على حماية اللاجيء والدفاع عنه، وأشار الى ذلك المؤرخ حيدر الشهابي(١١) بقوله:

«...لم يحفظ الجوار ويرعى الذمام... ولام الناس الأمير يوسف على ذلك...».

وبوفاة أحمد باشا الجزار سنة ١٨٠٤ سعى مشايخ جبل عامل للاستفادة من الاضطراب السياسي الذي ساد بلاد الشام، فطردوا المتسلمين من مقاطعاتهم واستعادوها كما كان الحال سابقاً. لكن تمكن خلفه سليمان(*) باشا من توطيد سلطته كوالٍ لصيدا، فأعاد المقاطعات العاملية الى حكمه المباشر وعين عليها متسلمين من قبله، وفشلت كل السبل التي لجأ اليها العامليون للعودة الى حكم بلادهم حتى سنة ١٨٢٢. ففي تلك السنة نتيجة لتمرد عبد الله (*) باشا على سلطات الاستانة، سعى الى مواجهة الخطر الذي يهدد حكمه، عن طريق تكتيل العصبيات المحلية في المنطقة الى جانبه. ونظراً لمعرفته الأكيدة بالقدرات القتالية التي يتمتع بها المشايخ العامليون، سعى الى التقرب منهم عن طريق التلويح لهم، بتحقيق حكم طالما كافحوا من أجله بكل السبل، فأرسل الى الشيخ فارس ناصيف النصّار يبلغه برغبته، رفع المتسلمين المعينين من قبله في اقليمي الشومر والشقيف، واعادتها لتكون بتصرف المشايخ كما كانت سابقاً في يد آبائهم مقابل.

● أن يقوم المشايخ العامليون بايراد الأموال الأميرية، التي يرسلها عادة متسلموه من جبل عامل،

● أن يجند المشايخ عند الحاجة الفي خيال وعدداً من المشاة، يحضرون لخدمة الوزير والقتال الى جانبه عند الطلب.

● يتعهد الوزير للمشايخ بأن يتخلى لهم عن مبلغ خمسمئة كيس ومئتي غرارة شعير.

ووافق العامليون على هذه الشروط فاستعادوا حكم بلادهم، واحترموا تعهداتهم للوزير فحاربوا الى جانبه، ولعبوا دوراً هاماً في الانتصار الذي أحرزه في معركة المزة على خصمه درويش باشا والي دمشق.

●

الهوامش

(١) تباينت الأرقام لدى مؤرخي هذه الفترة. راجع: فرنسوا فولني. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي. أنظر ج ١ ص ٦٣؛ عبود الصباغ. الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. مخ. مسجل في مكتبة يافت في الجامعة الاميركية في بيروت، تحت رقم (M.S/956/Z/7mA) انظر ص ١١.

MARITY, Giovani Abbé. Voyage dans L'isle de Chypre, la Syrie et la Palestine avec L'histoire générale du levant, tradui de l'italien. voir V.2 p.26.

اعتمدنا على تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٥ تاريخ ١٧٧٢/٦/٢٨.

(٢) PARADIS (Jean Michel Venture de) Mémoires sur les Druses peuples du Liban. MS. publié dans (Les Annales de voyage), T. IV p.334.

(٣) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١١/٤.

(٤) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (J) ملف ٧٩٥ تاريخ ١٧٥٤/١٢/٤.

(٥) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢.

(٦) حيدر رضا الركيني. جبل عامل في قرن. مخ. نشرته مجلة العرفان. أنظر م ٢٨ ص ٩٥٢ سنة ١٩٣٩.

(٧) مترجم من الباحث عن تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢.

(٨) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB1) سجل ٩٧٩ حالة القنصلية العامة في سوريا وفلسطين خلال عام ١٧٨٦.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB1) سجل ٩٧٩ تاريخ ٦/٥/١٧٨٥.

(١١) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. ج ١ ص ١٤١.

المصادر والمراجع

اولا — وثائق غير منشورة

- دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (AEBI) الصادرة عن قنصلية فرنسا العامة في عكا، ونيابة قنصلية صيدا.
- أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة (J).

ثانيا — وثائق منشورة

- Ismail, Adel., Documents Diplomatiques et Consulaires Relatif`a E'histoire du Liban et du pays du Proche-orient. Beyrouth: ed. des Ocuvres politipue et historipue, 1975-1983, 28 vols.

ثالثا — مخطوطات

- عبود الصباغ: الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. مخ مسجل في مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم (MS /956/Z17 MA).

رابعاً — مصادر أصلية

- إبراهيم العورة: تاريخ ولاية سليمان باشا العادل. مخ. نشره الأب قسطنطين الباشا، صيدا، ١٩٣٦.
- حيدر الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. مخ. نشره د. أسد رستم ود. فؤاد افرام البستاني. بيروت، ١٩٣٣، ٣ ج.
- حيدر الركيني: جبل عامل في قرن. مخ. نشرته **مجلة الوفاق** ابتداء من المجلدات رقم ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ من عام ١٩٣٧ — ١٩٤٠.
- رنسوا فوني: سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، صيدا، (١٩٤٨ — ١٩٤٩)، جزءان.
- مخايل بريك: تاريخ الشام (١٧٢٠ — ١٧٨٢). مخ. نشرة الأب قسطنطين الباشا عن النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة برلين من مخطوطاتها العربية رقم (٩٧٨٦)، حريصا، ١٩٣٠.
- مخايل الدمشقي: تاريخ حوادث الشام ولبنان. مخ. نشره الأب لويس المعلوف عن نسخة المتحف البريطاني. بيروت، ١٩١٢.
- مخايل الصباغ: تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد. مخ. نشره الأب قسطنطين الباشا. حريصا (لات) يتضمن مقدمة للناشر حول نظم الحكم والإدارة في الولايات السورية.
- Moruti Giovani Abbé. Voyage dans l'isle de chypre la Syrie et la Palestine avec l'histoire generale du Levant trad. de l'talien. Paris, 1791. 2 vols.
- PARADIS, (J.M.de) Mémoires sur les druses Peuples du Liban. M.S. Comuniqué par m. Lascaris Publié dans (Les Annalles des Voyages), t. 4, pp. (324-71) Paris. 1809. see. ed.

خامسا — ابحاث ودراسات أكاديمية

- ادوارد لكروي: احمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، ساوباولو، البرازيل، سنة ١٩٢٤.
- عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابوليون بونابرت. دمشق، سنة ١٩٥٦.
- عصام علي خليفة: جبل عامل والأمراء الشهابيين. رسالة دبلوم لنيل شهادة الكفاءة من كلية التربية في الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩.
- علي الزين: مع التاريخ العاملي. صيدا، (لان).
- محمد التقي الفقيه: جبل عامل في التاريخ. بغداد، (١٩٤٥ — ١٩٤٦)، جزءان.
- محمد جابر ال صفا: تاريخ جبل عامل. بيروت، (لان).
- هنري غيز: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبود، الطبعة الثانية، سنة ١٩٥٠.
- Charles- Rouse, Froncois. Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIII Siécle. Paris, 1927.
- CHEVALLIER, Dominique. La Société du Mont-Liban à l'époque de la revolution industrielle en Europe, Paris 1971.
- Cohen, Amnon. Palestine in the 18 th Century. Jerusalem, 1973.

(*) امتدت ولاية صيدا في تلك الفترة الزمنية من جسر نهر الكلب حتى جبل الكرمل.

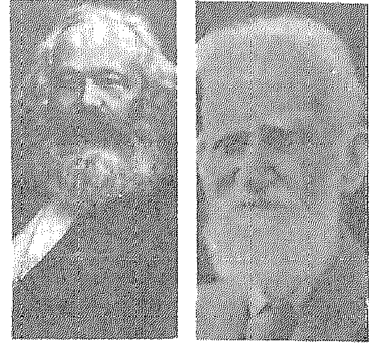
(*) أحمد باشا الجزار من مواليد البوسنة، اشتراه علي بك الكبير وجعله جلادا فلقب بالجزار.

(*) الذيل أو الطوخ عند الأتراك العثمانيين مزراق في رأسه كرة مذهبية يعلوها هلال، وتعلق تحت راس الكرة خصل من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر. وكان لكبار رجال السلطنة العثمانية اطواخ بحسب مراتبهم، فللسلطان سبعة أطواخ وللوزير ثلاثة أطواخ وللوالي العادي طوخان.

(*) اعتاد العثمانيون في معاملاتهم المالية استخدام الكيس، وهو يتسع لمبلغ مقداره ٥٠٠ قرش.

(*) حصن دير حنا يقع في فلسطين وكان بمثابة آخر مقر لعصيان الشيخ علي ظاهر العمر.

(*) سليمان باشا العادل والي صيدا (١٨٠٤ — ١٨١٩).



برنارد شو وماركس

يروي الكاتب الانجليزي برنارد شو أنه حضر مرة جلسة لاحدى الجمعيات الماركسية. وورد ذكر كتاب ماركس «رأس المال» وكانت قد ظهرت منه طبعة بالفرنسية. فلما سئل إن كان قد قرأها فلما قال بأنه لم يفعل ظهر على وجوههم الانكار لجهله والاحتقار لآرائه. فما كان منه إلا أن بادر الى الكتاب وأتى على ما فيه.

وحضر الجلسة التالية. ولم يكد يبلغ الحاضرين أنه قرأ الكتاب ووقف على ما فيه من آراء حتى بالغوا في احترامه. واكتشف بعد ذلك أن أحداً منهم لم يكن قرأ الكتاب.

مدام دي ستايل وتاليران

عرفت الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل بتعليقاتها الجارحة. وكانت تمقت تاليران وزير الخارجية في عهد نابليون. على أن لسان هذا لم يكن أقل مضاء من لسانها. وحدث ذات يوم أن قالت له:

ــ صدر كتاب جديد لكل منا انا وأنت فيه صورة مقنعة. ويبدو أن صاحب الكتاب لا يقدر رجولتك حق قدرها. إذ يبدو كل منا في شكل امرأة جذابة. فقال تاليران:

ــ لا أشك أنه أخطأ في الحالين.

شارل الثاني والاغتيال

جمع الملك شارل الثاني ملك انجلترا في شخصه عددا من المتناقضات. كان في منتهى الذكاء ولكنه كان يميل إلى العافية والحياة المرحة السهلة. وكثيرا ما كان يدع الأمور تأخذ مجراها غير عابيء بما يمكن أن يترتب عليها من نتائج ضارة. وبالرغم من أنه في حياته الخاصة كان يسرف في الملذات فإنه كان محبوبا من قبل الشعب. وبالرغم من تعدد علاقاته الغرامية وثمارها المحرمة فإنه لم ينجب سوى أبناء غير شرعيين. وكان وريثه الوحيد هو أخوه جيمس ديوك أوف يورك. ومن المعروف عن هذا الوريث أنه كان على عكس اخيه. اتصف سلوكه بالجد وعمل ليل نهار. لكنه كان ضيق الأفق شديد التعصب. ولم يظفر بحب الناس له.

ولاحظ جيمس أن أخاه الملك يخرج بلا حراسة ويزور أمكنة غير مأمونة. فعاتبه مرة بعد مرة على إهماله وحذره من إمكان اغتياله. وفوجيء أخيرا عندما قال له أخوه:

ــ دعك من هذا الكلام الفارغ. انا مطمئن كل الاطمئنان على حياتي. فليس هناك أحد يحلم باغتيالي لينصبك ملكا خلفا لي.



بعد عشرين سنة من حكم موسوليني

زار سائح ايطاليا في عهد موسوليني. واستقل سيارة أجرة لتنقله من المطار إلى روما. ولفت نظره أن الناس يقفون صفوفا أمام أحد الأفران. فالتفت الى السائق وقال:

ــ لماذا يقف الناس صفوفا امام هذا الفرن؟

وخشي السائق ان يقول له الحقيقة فرد عليه بقوله:

ــ إنهم يقومون بتصوير أحد الأفلام وهذا مشهد من مشاهد الفيلم.

وبعد دقائق رأى السائح صفوفا ايضا أمام دكان أحد الجزارين. وقبل أن يسأل السائق قال له هذا:

ــ وأمامك مشهد آخر من مشاهد الفيلم.

وبعد قليل رأى السائح الناس صفوفا أمام إحدى الصيدليات. فلما سأل السائق عنهم قال له:

ــ هذا هو المشهد الثالث من الفيلم.

فسأله السائح:

ــ وما اسم هذا الفيلم؟

ــ بعد عشرين سنة (من حكم موسوليني).

عبد الحي البعلي[1]

د. أسامة عانوتي

ليست الشاعرية وحدها هي التي تستوقفنا في حياة هذا الشاعر، المولود في بعلبك (ومنها جاءت نسبته: البعلي). فحياته تنطوي على عبث، في أوليته، ثم توبة وتصوف، بعد ذلك، على نحو تتبدى فيه ظاهرة التصعيد[2] أو الإعلاء (Sublimation) التي قال بها «فرويد» (Freud).

قال عنه المحبي: «... كان في عصرنا هذا الأخير، من أرق مَنْ عرفناه طبعاً، وألطفهم شعراً، وله قريحة سيالة، وفكرة نقادة. وكان عشّاقا، ولوعا بالجمال. يتفانى صبابة وعشقا. وتأخذه حَيْرَةُ الغرام فيسكر وجدا وشغفا. وكان سهل الألفاظ في شعره، رشيق التأدية... وكان يعرف اللغة معرفة جيدة، وحفظ من الأشعار شيئا كثيرا، وتجرد مدة عن هيئته، ودخل في هيئة الدراويش السواح (السيّاح) فطاف البلاد... واستقر بدمشق آخرا وتزوج بها، ثم انعزل في خلوة بالمدرسة العزيزية. وقد عاشرته مدة فرأيته من أكمل الناس... وكان مع خلاعته، وتولعه بالحب عَفَّ الإزار، مثابرا على الطاعة، وله تهجدات (الصلوات في الليل)، وأوْراد وخشية من الله تعالى، وحج آخر عمره، فرجع متنسكا للدنيا، متقشفا...»[3].

ولم يرد سبب توبته الا على نحو شبه رمزي، أو شبه صوفي: «ومن نوادر أسماره ومحاسن أخباره، أنه كان في غضون الصِّبا يهوى حبيبا كأنما تكوّن من رقة الصَّبَا. وكان يذوق في تقلباته ما يحار فيه الوهم، ويعجز عن حمل بعضه الطود الأشم، على أن ما قاساه من البلايا والمحن لم يكن بمستحقها... فحدثته نفسه بأن يتخلص من هذا الشرَك، وينقل الروح من أسر ذلك المارد إلى هذا المَلَك. فعرض له طائف من الخيال، وهبت عليه نفحة من برزخ[4] المثال. فرأى شكل حبيبه الذي شب به ضرام الجوى ينظر إليه شزرا، وهو مارٌ في الهوى، وهو يومي إليه كالمعاتب، ويلومه بلسان الحال كما يلام القادر الكاذب. فحصل له من الحياء والحجاب ما أوقعه في أعظم مصاب... فبينما هو لا يدير لحظا، ولا يحير لفظاً، إذا برجل أعظم ما يكون، مد يده إلى فؤاده، واختطفه بسرعة عزمه، وقوة سداده وألقاه إلى ذلك المثال؛ فأخذه وولّى من حيث شاء في عالم الخيال؛ فاستيقظ، وقد أُضِلَّ قلبُه، وضيع صبره ولبه، وعقد التوبة عما جنى في شرع الهوى من الذنوب، وفي كل عين منه أجفان يعقوب...»[5].

توفي البعلي سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م عن خمس وستين سنة، ودفن في دمشق.

قلنا في مطلع هذا المقال إن البعلي كان شاعرا مجيدا، ومن أغراض الشعر القديم التي حام حولها: الدُّوَبْيت.. — أو ما يشبهه —. ويقارب هذا «الرباعيات»:

الأهـمَّ الأهـمَّ إن كـان لا بـد
فـإن الزمـان فـينـا قـصـيرُ
لا تضعْ فرصـةَ الحياة فمـا للـ
ـعمر حيث انتهى مداه معيرُ[6]

ففي هذين البيتين صدى من صوت «عمر الخيام»[٧].

ومن عَجَب ألّا ينقل صاحب «الخلاصة» شيئا من شعره الذي قال بعد توبته.

وفي ظني أنه لا بد قال. فنقلته من حمأة الرَّفَث (ما يطلق عليه اليوم: الجنس) إلى درجة من الجذب الصوفي؛ إنما هي تصعيد الغرائز (Sublimation). فهو يشبه، من هذه الناحية، محيي الدين بن عربي (الصوفي الكبير) الذي بدأ حياته غير متحرج، ثم ما لبث أن سَمَا سموه الروحي المشهور. فقد انطلق من نطاق العضوية التي تجلت في تدلهه ببنت النيسابوري واستعلى استعلاءه الروحي العظيم. ومهما يكن فلنورد شيئا من شعره[٨]:

ليس جبنا أن أموِّهَ في الحب
وأُخفي وأستشين البيانا
غير أني أُجِلُّ مالكَ رقي
أن مثلي يشدو به إعلانا
فإذا ما فخرت أفخرُ بالصبر
وأُلْفَى لسرّه صوّانا
وإذا ما شكوتُ فَلتلكَ
شكواي إليه عساه أن يتدانا
فشجاعُ الهوى الصَّبورُ على جـ
ـرح مباريه صارما وسنانا
لا الذي إنْ تَشُلَّهُ[٩] بادرةُ
الطرف تراه يقرّع الأسنانا
ومراح الغزال فيه مصان
عن سواه وحقه أن يصانا

ومن قصائده[١٠] المتسمة بجمال الإيقاع:

ما الذي أوجب صَدَّكْ
ولِمَ اخلفتَ وعدكْ؟
أَلِشُغْل دنيوي
أم عذابي كان قصدَكْ
أم دلال أم تجنّ
أم قرين السوء صدك
وعلى أية حال
أَسْعَدَ الغفرانُ جَدَّك[١١]
بالذي ولّاك رقي[١٢]
سيدي لا تنس عبدك
أنا في قرب وبعد
حافظ، بالله، عهدك
أنا مَنْ شاد كما شاء
التقى والصون ودك
كم خلونا والمروءات
وشت بردي وبردك
وعفاف الذيل قد طوّق
جيد الصب زندك
هكذا نحن فظنَّ الخيرَ
يا سائل جهدك
أنا من يتبع غيَّ[١٣] الحب
فاتبع أنت رشدك

الهوامش

(١) تجد ترجمة باستفاضة في «خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر» للمحبي: ج ٢، ص ٣٢٨ ــ ٣٤٠.

(٢) «... مصطلح ابتدعته مدرسة التحليل فيما يتعلق بالدافع الجنسي من حيث أنه مزود بالقدرة على التسامي والاستبدال بالهدف الأدنى أهدافا ارفع. وأيضا: إشباع الحرمان عن طريق العمل الإبداعي. ويتضمن الإعلاءُ تحلل التاقة «اللبيدو» من الصورة الجنسية لتنتظم في مستوى ارقى»، «المرجع» للعلايلي: ١/٢٠٥، وانظر ايضا: تسام (١/٥٥٣) وتصعيد (١/٥٦٩).

(٣) «خلاصة الأثر» ج ٢، ص ٣٢٨.

(٤) «دينيا: ما بين الدنيا والآخرة من الموت إلى البعث... صوفيا: عالم المثال، اي الوسط بين الأجسام والأرواح المجردة...» («المرجع» للعلايلي: ١/٣٨٣).

(٥) «خلاصة الأثر»: ج ٢، ص ٣٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٣٩.

(٧) ليس في اللغة الفارسية (الاعلام الفارسية) «ال» التعريف. فهم يقولون «عمر خيام» لا «الخيام».

(٨) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٣٢.

(٩) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣.

(١٠) من: شاك يشوك، اي اصابته: شوكة.

(١١) الجد:(بفتح الجيم) من معانيها: الحظ.

(١٢) الرق: الأسر والعبودية.

(١٣) الغي: الضلال.

إيفا بيرون



العاشر من آب ١٩٥٢، الساعة ١٧,٣٠، دوت إحدى وعشرون طلقة مدفع في شوارع بوينس أيرس، التي خيم عليها صمت عميق لا تقطعه إلا العبرات والنحيب، تشيع جثمان إيفا بيرون المحمول على عربة مدفع، إلى وزارة العمل.

كان خمسة وأربعون عاملا يحيطون بالنعش، وطلاب المدرسة الحربية وكلية الطيران، وكلية البحرية، فيما اصطف على جوانب الشوارع سبعة عشر ألف جندي.

توقفت الجنازة أمام وزارة العمل، وحمل النعش إلى أحدى قاعاتها، التي تحولت إلى مختبر لتحنيط جثمان إيفا بيرون.

اقسم أمين عام اتحاد نقابات العمال، جوزيه ايسبيجو أن يكون «حارسها إلى الأبد»، حارس إيفا بيرون التي دخلت الأسطورة، وغدت مثل العمال والفلاحين الارجنتينيين المقدس.

رئيس الأمة الروحي



[illegible]

فتاة من أصل متواضع

[illegible]



□ إيفا تحيي الجماهير ووراءها بيرون واعوانه.

أن تغدو معلمة. أما أختها الثانية فوظفت في البريد. أما إيفا فتوهجت أحلامها وغدا مثلها الأعلى جين هارلو. لذلك صبغت شعرها مثل شعرها، وخبأت بعض مصروفها لتشتري حذاء ذا كعب عال. وقد اختيرت مرة في مدرستها لتمثل دورا بسيطا في مسرحية، فكانت تلك بداية تحقيق الأحلام في نظرها..

عام ١٩٣٥، الذي مات فيه مغني التانغو الشهير كارلوس غاردل، رحلت إيفا إلى بوينس ايرس، وكان عمرها خمسة عشر عاما، وعاشت مع مغن مغمور. وقد عرفت كيف تستغل مفاتنها، لتسيطر على عقول من يتعرفون إليها.

حصلت إيفا على عقد للعمل في فرقة مسرحية تديرها إيفا فرانكو. وقد قامت بأدوار متواضعة: كدور وصيفة، في مسرحية من الدرجة الثانية. ولكنها ركزت همها على اتقان كل دور يسند إليها، وعلى تعلم التمثيل، بصبر وأناة. وقامت الفرقة برحلة فنية زارت فيها عدة مدن، منها: روزاريو، مندوزا، قرطبة.

ونجحت في الحصول على أدوار في السينما والراديو، وإن تكن ثانوية. ولعل مما ساعدها على ذلك صوتها الأجش، وكان الصوت الأجش صرعة تلك المرحلة.

لقاء خوان بيرون

في الوقت الذي كان فيه العالم ينشطر إلى معسكرين، كانت إيفا توالي انتصاراتها الاذاعية. فقد مثلت، اذاعيا، أدوار اليزابت ملكة انكلترا، والقيصرة الكسندرا فيودوروفنا. وساهمت في بناء «شركة الراديو الأرجنتيني»، وهي مؤسسة نقابية أنشئت للدفاع عن حقوق العمال والتعبير عن قضاياهم. وقد برهنت خلال فترة قصيرة عن مواهب وقدرات في العمل الملتزم للصراع من أجل قضايا العمال. في هذه الفترة التقت خوان بيرون.

ففي ١٥ كانون الثاني ١٩٤٤ حدث زلزال ذهب بعشرة آلاف قتيل، وجرح اثنا عشر ألف مواطن في سان خوان.

قررت شركة الاذاعة الأرجنتينية، أن تقيم احتفالا لمساعدة المنكوبين، وذلك في ٢٢ كانون الثاني. وكانت إيفا في الاحتفال. وكان هناك كذلك رئيس الجمهورية يصحبه وزير الدولة لشؤون العمال الكولونيل خوان بيرون. وفي ختام السهرة ذهبت إيفا بصحبة الكولونيل بيرون.

كان عمر بيرون تسعة وأربعين عاما. وكان في أوج صعوده السياسي. وكان، منذ انقلاب الرابع من حزيران ١٩٤٤ الموجه الخفي للنظام الجديد. فهو الذي وقف وراء الانقلاب الذي نفذته «جماعة الضباط المتحدين»، وهم جماعة من الضباط برتبة نقيب فما دون، تضمر حقدا كبيرا على طبقة من الجشعين يستغلون الحكم لمصالحهم الخاصة.

تبعية الأرجنتين

كانت الأرجنتين، مثل العديد من البلدان الحديثة، تبحث منذ القرن التاسع عشر عن هويتها الوطنية.

تبلغ مساحة الأرجنتين ٢٨٠٠٠٠٠ كم². وقد حصلت على استقلالها من اسبانيا في القرن التاسع عشر. أما إنتاجها فكان يعتمد على الحبوب والفواكه، والانتاج الحيواني، خاصة اللحم والصوف والجلود. وكان اقتصادها يرتكز على تصدير هذه المنتجات، لذلك اضطرت إلى الاستيراد، وقد استغلتها الأموال الأجنبية على نطاق واسع. ويمكن القول إنها بين ١٨٦٠ و١٩٣٠ كانت مستعمرة اقتصادية لرؤوس الأموال البريطانية بدرجة أولى، ثم الفرنسية والألمانية والأميركية الشمالية. وذلك بالتحالف مع طبقة من كبار الملاكين الأرجنتينيين، الذين أفادوا من نظام يستند إلى تصدير المواد الأولية. أما البنوك، والبناء، فكانت في أيدي الأجانب.

وقد أسهمت في تشغيل هذا النظام وتحريكه الأيدي العاملة الأجنبية، إذ كانت الهجرة كثيفة جدا، ففي القرن التاسع عشر، تدفق المهاجرون من أوروبا، بالملايين، وقد بلغ عددهم أربعة ملايين خلال سبعين عاما، بينما سكان الأرجنتين آنذاك مليون فحسب. وكانت نسبة الايطاليين مرتفعة جدا تليهم نسبة الاسبان، فالفرنسيين فالألمان فالسلاف.

وكان المهاجرون يقطنون في جماعات، يجمعها الأصل. غير أن أبناءهم قرروا الاستيطان، واعتبار أنفسهم أرجنتينيين.

غير أن العائلات الأرجنتينية الأصل، كانت مسيطرة، وكانت تفتخر بعراقتها، وانتسابها القديم إلى اسبانيا. وقد فاز معظم مرشحيها لانتخابات ١٩١٢. غير أنها تخلت عن السلطة لمتسيسين، نعتوا بالراديكالية. والواقع أن هؤلاء كانوا يمثلون اليمين، وإن كانوا واجهة ديموقراطية، للطبقة المستغلة.

اضطربت الموازين بعد أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية العالمية. وأصيبت البلاد بنكسة اقتصادية خطيرة، فقد انهارت الصادرات، ولم تعد البلاد الأخرى تستورد منتجاتها. كما أنها لم تعد تستطيع شراء ما تحتاجه من معدات أو منتجات من الخارج، لفقدان المال.

غير أن هذه الأزمة حفزت الأرجنتين على تصنيع نفسها، وإن صناعة خفيفة. وقد درت هذه الصناعة أرباحا طائلة على الذين وظفوا فيها أموالهم. وجاءت الحرب الثانية لتضاعف ثروة الأرجنتين لأن الدول المتحاربة أقبلت على شراء منتجاتها.

على أن هذا التطور السريع خلق أزمة جديدة، وهي نزوح سكان الريف صوب المدن وخاصة بوينوس آيرس التي بلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين، مما أضعف انتاج الحبوب واللحوم والفواكه.

وكان العمال في المدن، وخاصة العاصمة يعانون من ظروف عمل سيئة جدا، ولم تكن لهم نقابات، ولا يشملهم أي نظام إلا نظام استغلالهم. ولم ترعو الطبقة الجشعة، بل تمادت في الاستغلال وتسلمت السلطة عام ١٩٣٦، لتحكم قبضتها على العمل والعمال والانتاج.

اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأعلنت الارجنتين الحياد. ولكن العديد من رجالاتها كانوا يميلون إلى المحور. بيد أن الحكم كان مضطرا إلى مسايرة الولايات المتحدة والتعامل معها لخشيتهم من سطوتها وسيطرتها على الأرجنتين.

في الرابع من حزيران ١٩٤٣ قام انقلاب الضباط الذين كان يتزعمهم الكولونيل خوان

بيرون. وقد دفع إلى منصب نائب الرئيس، ثم الرئيس صديقه الجنرال فارّل. بينما احتل منصب وزير دولة لشؤون العمل.

كان الاختيار غريبا، إذ لم تكن لبيرون أية علاقة بقضايا العمل. ولا كان ميالا إليها. فقد دخل الحربية عام ١٩١٣، وتخرج برتبة ملازم عام ١٩١٥، وأصبح نقيبا عام ١٩٢٤، ثم رائدا عام ١٩٣١، ثم مقدما عام ١٩٣٦. وعين مدرسا في المعهد الحربي، ثم ملحقا عسكريا في تشيلي، ثم كلف بمهام في ايطاليا والمانيا، ورشح لرتبة عقيد عام ١٩٤١.

لم يلجم بيرون العمل النقابي، على عكس ما تصور من يعرفونه، وعلى عكس ما جرت عليه الحكومات السابقة. بل أعد مشاريع قوانين لتحسين شروط العمل، والوضع الاجتماعي والمادي، مما أكسبه صداقة العمال.

في هذا الوقت، وبالتحديد: ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٤، تعرفت إيفا إلى بيرون، وهو في أوج صعوده السياسي.

صعود بيرون

بيرون من أب إيطالي وأم إسبانية. وبالتالي فهو يمثل غالبية سكان الأرجنتين. وكان باستطاعته التعاون مع الطبقة الرجعية المستغلة، غير أنه التزم مصالح الشعب.

بدأ نجمه في الصعود، ولكنه لم يتخل عن وزارة العمل. ثم اختير وزيرا للحربية، ثم نائبا لرئيس الجمهورية. وقد خلف صديقه فارّل الذي صعد إلى سدة الرئاسة. وحلّ هذه الفترة مجموعة الضباط المتحدين، التي باتت تقلقه.

في ١٩ تموز ١٩٤٥ أعلن بيرون: «القضاء على الرجعية، وبداية عصر جديد، يؤكد حقوق الجماهير، ومسؤوليتها، وشرعية تدخلها لحل القضايا الأساسية».

أما من أذاع البيان من الراديو، فإيفا بيرون، التي غدت منذ ذلك الحين شريكة حياة بيرون.

وكانت إيفا تذيع كل يوم صباحا برنامجا موجها إلى السيدات عنوانه: نحو مستقبل أفضل. تفضح فيه معاناة الشعب وشقاءه، وعذاب المعذبين، والعاطلين عن العمل، وتعد نساء الأرجنتين بيوم أغر، بفضل بيرون.



□ إيفا فتاة الغلاف.

□ إيفا مع الأطفال في مؤسستها.

الاصلاحات تثير الرجعية

أقلقت هذه اللهجة اليمين الرجعي، بينما طرح بيرون مشروع إعادة الاعتبار إلى العمال الزراعيين، والغاء السخرة عنهم، وحفظ حقوقهم كاملة.

قررت الرجعية القضاء على بيرون. فأطلقت الاشاعات حول إيفا، وعمدت إلى تحذير الرأسماليين من مخططاته. كما أن الدول الأجنبية ساهمت في الحملة ضد بيرون وإيفا. وكان سفير الولايات المتحدة، يقف وراء كل ذلك النشاط.

أصدرت السلطة، في حزيران ١٩٤٥ بيانا تدين فيه سياسة بيرون الاشتراكية. فأعلن اتحاد نقابات العمال الذي ساعد بيرون على تأسيسه ودعمه، أعلن وقوفه إلى جانب بيرون.

وقامت تظاهرات في آب دعما لبيرون. وفي ١٩ أيلول قامت «مسيرة الدستور والحرية»، وضمت ستمائة ألف شخص. ووقفت الصحافة كلها ضد بيرون. وتخلى عنه العسكريون. وتحت ضغطهم اضطر فارل إلى دعوة بيرون للتخلي عن جميع مناصبه. وأوقف في ١٣ تشرين الأول، ونفي إلى جزيرة ريودولابلاتا.

وقامت إيفا بجهود جبارة لدعم بيرون. كانت تتصل وتنظم وتسهم في تطوير النشاط الشعبي. وكانت تختبىء ليلا عند صديقتها، وتهب في النهار إلى النشاط المحموم. وقررت النقابات الاضراب العام في ١٨ تشرين الأول.

في ١٧ تشرين الأول اندفعت جماهير العمال في تظاهرة عارمة في بوينوس آيرس، وتوقفت المعامل والمدارس عن العمل. وخلت الأبنية الحكومية من كل موظف. فكر الرئيس فارل بتدخل الجيش ولكنه عدل عن ذلك. واستشار مستشاريه، فقالوا أن بيرون أصبح سيد الموقف.

الشعب مع بيرون

طلبت منه السلطات حل الأزمة بالتدخل مع العمال، ولكنه رفض، وأعلن أنه ابن الشعب. وكانت الهتافات في ساحة روزادا تردد: «بيرون ابن الشعب، والشعب معه»، ومنذ تلك الساعة أطلق على بيرون اسم الزعيم. وقد أعلن تخليه عن كل مناصبه ورتبه ليتفرغ للعمل من أجل العمال، ووعد بيوم أفضل، ومستقبل زاهر. ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية.

كان ١٧ تشرين الأول ١٩٤٥، يوما تاريخيا، فقد سار عشرات ألوف من العمال يحيون ويؤيدون الزعيم الذي سيحطم قوى السياسيين الرجعيين. ولكن كان لا بد من صيغة دستورية، ولهذا رشح نفسه للرئاسة.

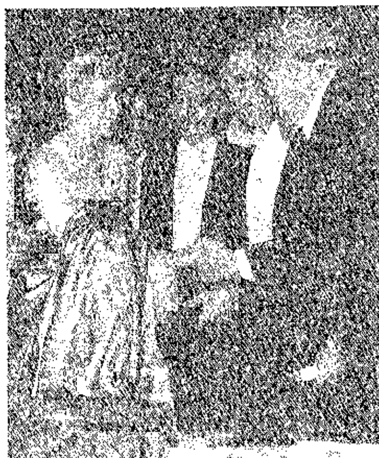
كان موعد الانتخابات في ٢٤ شباط ١٩٤٦. في ٢٠ كانون الأول، جعل وزير العمل، ميركانتي، وهو ساعده الأول، يوقع قرارا يفرض على أصحاب العمل دفع الشهر الثالث عشر للعمال، ويحدد الحد الأدنى للأجور. رفض أصحاب العمل القرار. فعقد العمال اجتماعا ضم الألوف، ثم ساروا في الشوارع يؤيدون القرار. وأعلن من ١٤ إلى ١٧ اضراب عام. لذلك أذعن أصحاب العمل.

ساهمت إيفا في حملة الانتخابات. وقد أصبحت زوجة بيرون في ٢٢ كانون الأول.

وهاجم التحالف المعادي لبيرون، بكل وسائل الاعلام بيرون وزوجته، تدعمهم الولايات المتحدة دعما مكشوفا. ولكن بيرون نجح بنسبة ٥٥٪ من المقترعين، وحصل أتباعه، في الانتخابات نفسها على ثلاثة عشر مركزا من أربعة عشر من مناصب حكام المقاطعات. وعلى ثلثي أعضاء البرلمان، وكل مقاعد مجلس الشيوخ.

وهكذا بدأ عصر البيرونية.

وكان لا بد لبيرون من أن يستميل الشعوب الأوروبية وحكوماتها التي قامت بحملة كبرى



□ إيفيتا يستقبلها رئيس الوزراء الفرنسي بول رامادييه وجورج بيدو.

ضده، فأرسل زوجته مبعوثة من قبله إلى أوروبا، ففرضت بلطفها وذوقها ووعيها على كل المحافل الحكومية التي استقبلتها باحترام كبير. وبرزت سيدة مجتمع وسياسية محنكة، وحازت على اعجاب الطبقات الارستقراطية في فرنسا خاصة، بذوقها الرفيع في الثياب والحلي.

إيفيتا وزيرة دولة للعمل

حين عادت إلى الأرجنتين استقبلت استقبالا شعبيا ورسميا حافلا. وعينت وزيرة دولة للعمل، فكرست وقتها لرعاية مصالح العمال، وسنت



□ إيفيتا تهم بدخول مقر البابا للاجتماع إليه.

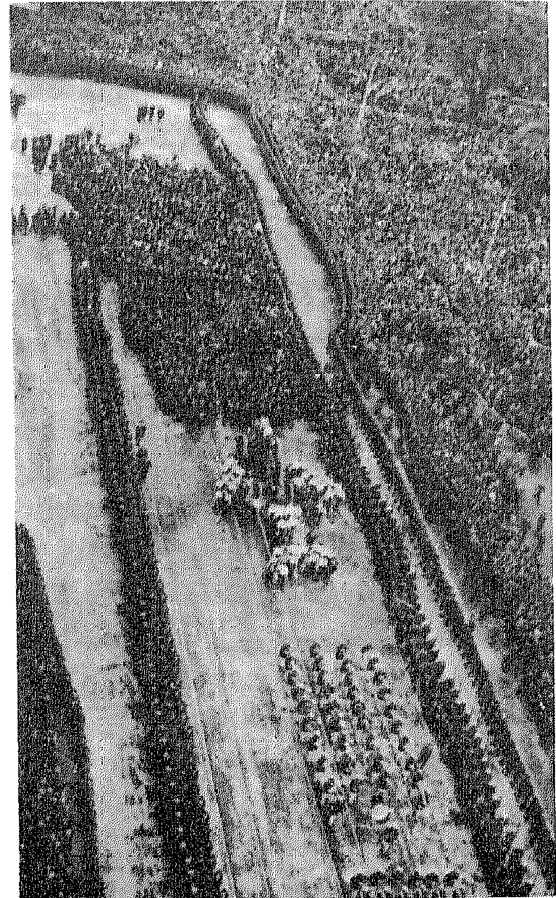
□ إيفيتا على فراش المرض.



قوانين لخيرهم. وأمرت ببناء المستشفيات لتطبيب العمال، ودور نقاهة، ومرابع صيفية وشتوية يقضون فيها إجازاتهم. وجعلت للنقابة وسائل خاصة بالاعلام، من صحف واذاعة وغير ذلك. وأنشأت مؤسسة بيرون لمساعدة المحتاجين في كل البلاد، ودعم حقوق العمال.

وعنيت عناية خاصة بالنساء، فأنشأت لهن فرعا من الحزب خاصا بهن. فكان لهذا الفرع أثره الكبير في انتخابات ١٩٥١. ذلك أن الأرجنتين مرت بأزمة حادة، إذ قل التصدير بسبب انخفاض الطلب الأوروبي، والمحاربة الأميركية. واضطر بيرون إلى تخفيف حدة الصدام مع الولايات المتحدة. وقد أثر ذلك على علاقات بيرون مع بعض حلفائه في الداخل. ولكن دور إيفيتا كان حاسما، رغم بداية شعورها بالعلة. وقد دعمتها نساء الأرجنتين. وعرفت كيف تصلح ذات البين بين بيرون وحلفاء الأمس.

□ الجنازة.





الصفحة الأولى من جريدة «لو سوار ديمانش» الفرنسية ٢٧ تموز ١٩٥٢


□ صور إيفيتا ممزقة خلال الانقلاب على بيرون،

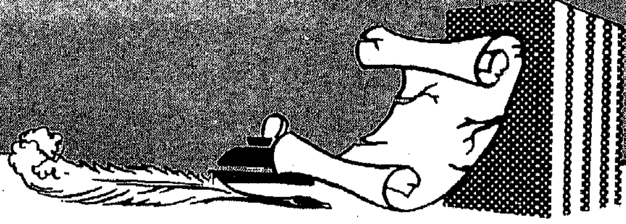
ونجح بيرون ثانية بنسبة ٦٥ ٪. وقد ساعد على ذلك نمو الصناعة الاستهلاكية التي غطت حاجات البلاد، تقريبا، وبأسعار معقولة.

موت إيفيتا وافول نجم بيرون

تفاقمت علة إيفيتا التي أصيبت بالسرطان، ولكنها ظلت تكافح وتتابع جهودها، رغم نحولها واصفرار وجهها.

غير أن العلة تغلبت أخيرا على إيفيتا. وبدأ نجم بيرون يأفل. وقام انقلاب أطاح به، ونفي إلى خارج الأرجنتين.

ولما عاد إلى الأرجنتين رئيسا، اصطحب معه زوجته الجديدة. فاستقبله الأتباع يمجدون ايزابلا التي «ستحل محل إيفيتا الخالدة». ولكن إيزابيلا لم تكن عند حسن الظن، وخاب أمل الأتباع. ●



أهمية الوثائق العربية في الدراسات التاريخية

بشير عثمان أحمد

امتدت الدولة العربية، بعد الاسلام، وخاصة في العهد الأموي، إلى الصين شرقا، والأطلسي غربا، وجنوب أفريقيا وآسيا جنوبا، وأعالي القسم الشرقي من روسيا شمالا. وذلك خلال عدة قرون. وتركت من الآثار والمؤلفات والوثائق ما لا حصر له. وقد ضاع الكثير، وشوه الحكام الأجانب في فترات من التاريخ، الكثير من تلك المستندات، وزوروا تاريخنا أيما تزوير، حتى بتنا لا نتبين الكثير من ملامحه. كل ذلك يستدعي العودة إلى دراسة تاريخنا وتخليصه من تلك الشوائب، بالاعتماد على تلك الوثائق. لذلك لا بد من جمعها ودراستها دراسة دقيقة على أسس علمية، وحفظها في دور للتوثيق ليتسنى للباحثين الرجوع إليها، عند البحث عن حقائق تاريخنا وحضارتنا.

حركة تجميع الوثائق في الوطن العربي



إذا نظرنا إلى الوثائق نظرة وثائقية نجدها اما وثائق عامة وهي التي تصدر عن السلطان أو الأمير أو دواوين الدولة أو وثائق خاصة وهي التي تصدر عن الأفراد مثل وثائق البيع أو الوقف والهبة وكلها تكتسب صفتها القانونية أو الشرعية بعد التصديق عليها بواسطة الشهود: وتوثيق القضاة لها اعترافا بأن ما جاء فيها صحيح لا لبس فيه ولا زيف.

ولما كانت الوثائق كمصدر أصيل ومنبع بكر في الدراسات التاريخية على اختلاف أنواعها، تحتم على المؤرخ أن يرجع إليها مفتشاً وباحثاً وجامعاً، وذلك لأن دراسة التاريخ تقوم في الدرجة الأولى كعلم على النقد والتحليل والتفسير لما ورد في الوثائق التاريخية، كما فعل مؤرخو الغرب وما زالوا..

على أن حركة تجميع الوثائق وإنشاء دور الأرشيف في العالم العربي بدأت تتضح معالمها وصولا إلى ما وصلت إليه رصيفاتها في العالم الغربي الذي سبق الشرق في هذا الميدان وقطع



□ مخطوطات إسلامية قديمة

شوطاً كبيراً، حيث اعتبر الوثائق مصدرا أصيلا للبحث التاريخي.. وكما يجدر بنا في معرض حديثنا عن أهمية الوثائق العربية أن لا ننسى الدور العظيم الذي قام به الخط العربي منذ أن كان خطا كوفيا بسيطا في العهد الأموي إلى أن صار خطا كوفيا مزدهرا في العصر الفاطمي حيث انقسم إلى قسمين خط المغرب وهو الخط الذي عرف فيما بعد بالخط القيرواني الذي انسلخ منه الخط الأندلسي والخط السوداني «خط تمبكتو أو الصحراوي» وخط المشرق وهو الخط الكوفي الذي تطور فأصبح فيما بعد بالخط الفارسي والديواني وينبغي أن لا ننسى أهمية هذا الخط في نشر ودراسة الوثائق العربية في مختلف العصور...

فالمؤرخ العربي يفتقر إلى الميزات والإمكانات التي أتيحت للمؤرخ الغربي، والذي تنبه لأهمية الوثائق في دراسة التاريخ وعمل على تنظيم أرشيفه ووثائقه مع الاهتمام بالخطوط التي كتب بها وثائقه.. وذلك لعدم اعتماد المؤرخ العربي على وثائقه وعدم قيام دور الأرشيف بالمستوى المنشود، اللهم الا في بعض الدول العربية التي لا تتعدى دولتين أو ثلاثاً مثل دار الوثائق التاريخية في جمهورية مصر العربية ودار الوثائق بجمهورية السودان الديمقراطية. وكما أنشيء الفرع الإقليمي للوثائق بالعالم العربي في بغداد في الآونة الأخيرة.. ويعزي عدم اهتمام المؤرخ العربي بالوثائق إلى تفرق الوثائق العربية في أكثر من مكان بالبلد الواحد والأدهى من ذلك أننا نجد كميات هائلة من الوثائق العربية قد تسربت إلى الدول الغربية أبان الاستعمار أو على حين غفلة من الدول العربية، ولا سيما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فإننا نجد أمهات الوثائق العربية متفرقة في الآفاق في متاحف ودور الوثائق والمكتبات الأوروبية ولا سيما في المانيا وبريطانيا وفرنسا وأميركا بل وجد بعض الوثائق سبيله إلى الهند واستانبول...

كما أننا نجد بقية الوثائق العربية التي لم تصل إليها يد الأجانب ولم تتسرب إلى خارج العالم العربي، لم تجد حظها من العناية والحفظ الجيد حيث لم يراع في تنظيمها الأساس العلمي من حيث الحفظ والترتيب الأبجدي أو الزمني أو الموضوعي...

والأرشيفات التاريخية فيها خلط كبير من حيث الترتيب بل أن بعضها قد وضعت في غير أماكنها

الطبيعية «دور الوثائق أو دور الأرشيف» فمعظم الوثائق العربية في العالم العربي إما توجد في دور الكتب ملحقة بالمكتبات العامة أو الجامعية أو في مكتبات البلديات أو في المحاكم الشرعية ووزارات الأوقاف أو المتاحف أو بيد أصحابها أو وارثيها.. وهذا أدى إلى إصابة بعضها بأضرار جسيمة، مما أدى إلى ضياع بعض قيمتها وفائدتها بسبب وجود تمزق وثقوب في بدن الوثائق أو الهوامش بوجه خاص(١)...

كل هذا بسبب قدم العهد وسوء الحفظ والحشرات، زيادة على تقلبات الجو.. بل أن بعضها حرقت أو دمرت في عهد الثورات والانقلابات.. كما تدخلت قلة الإمكانيات المادية والفنية في العالم العربي كعائق آخر للحفاظ على هذا التراث التاريخي، الأمر الذي جعل العمل صعباً في ميدان الوثائق العربية بخلاف ذلك بالنسبة للوثائق في الغرب...

ولو استطعنا أن نتغلب على هذه العوائق أو البعض منها ولا سيما أن بعض الدول العربية قد بدأت تتجه اتجاها علمياً في جمع وتنظيم وثائقها وارشيفاتها، سوف تتضح لنا الأهمية التاريخية للوثائق العربية في شتى الميادين وأن هذه الوثائق سوف تساعد المؤرخين في الوصول إلى دقائق الأمور بالنسبة للتراجم وأنساب الأسرات الحاكمة التي بلغت شأواً عظيما في العالم العربي وتوضح لنا الشيء الكثير عن هذه الأسرات وحكامها وتظهر لنا خفايا الأمور التي تدور داخل قصور الحكام مما لا يتسنى للرواة معرفته إلا عن طريق تحليل المكاتبات التي تركوها في خزانات كتبهم. الأمر الذي يوضح عناصر قوة تلك الأسرات وضعفها.. وربما تتطرق بعض هذه الوثائق إلى أخبار بعض شهيرات النساء في العالم العربي والدور الذي لعبته في تسيير دفة الحكم والسياسة العامة لتلك الحقب...

بعض موضوعات الوثائق

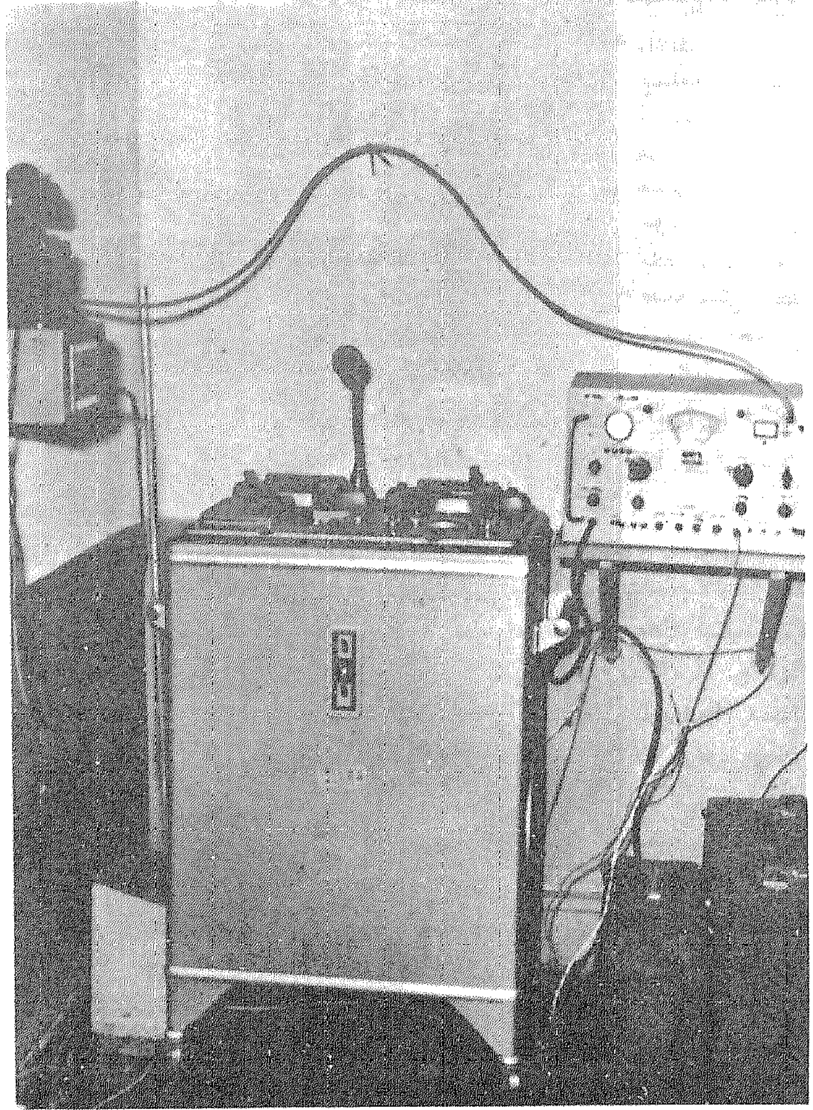
ونجد بعض الوثائق تميزت بإبراز دقائق الأمور مثل الوقائع الحربية الغامضة، مما أهمله المؤرخون أو بعضهم وأحياناً قد مسوه مسا سريعا، مثل أزمة ورق الكتابة وخاصة في عهد الخليفة عبد الله ويظهر هذا في بعض كتابات الأمير يونس الدكيم للخليفة من الجبهة الحبشية وبعض تعليمات الخليفة للتحكم في مخازن الورق المصادر من عهد الأتراك وكما توضح بعضها المنافسة المحمومة بين مصر وانجلترا وايطاليا على المحيط الهندي وجنوب البحر الأحمر حول موانىء عصب وبربرة(٢)...

لا في حين أن وثائق عربية أخرى توضح اضطرار بعض حكام المسلمين لبيع ممتلكات بيت المال لرصده للدفاع عن ثغور المسلمين والتجارة بين الشرق الإسلامي وحوض المحيط الهندي... وكما نجد البعض الآخر يكشف لنا كيف كانت مصر ترسل مؤن الحجاز واليمن بعد أن كانت توسله بغداد ولم تستطع الوفاء بذلك(٣)...

وتظهر وثائق عربية أخرى الصراع الخفي والحرب الدائرة بين رجال الطوائف، وتظهر هذه دائما في وثائق الوقف والهبة حيث تنص الوثيقة بأن هذه الأوقاف أو الهبات ممنوعة على بعض الطوائف المعادية للطائفة الواقفة أو الواهبة..

كما تكشف وثائق عربية أخرى مدى نفوذ مصر على الملاحة في موانىء جنوب البحر الأحمر والمحيط الهندي واطلاعها بمهام إصلاح تلك الموانىء والإنفاق عليها حتى تصبح صالحة للملاحة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(٤)...

ويرد في بعض الوثائق العربية عنصرية بعض الفئات الحاكمة وعصبيتها لفئتها ويظهر ذلك جليا في وثائق العصر المملوكي على مصر والشام باعتبار هؤلاء المماليك أتوا من أماكن نائية عن الوطن العربي جنوب البحر الأسود وجنوب روسيا أو لأنهم أخوة في السلاح أو التربية والسكن أو من فئة واحدة.. وكما تفيدنا بعض الوثائق في معرفة التنظيمات التي تسير عليها أو تتبعها بعض الدول في تقسيم الجيوش أو تنظيمها إلى الجهات التي أتوا منها أو حسب قبائلها. وهذه التنظيمات كانت متبعة منذ العصور الإسلامية الأولى بل منذ ظهور الإسلام وقد اتبع هذا التقسيم في العصور التالية ولا سيما في العصر المملوكي وكما نجد هذا التقسيم في بداية المهدية حيث نجد الراية الزرقاء، ويتبع لها معظم أبناء الغرب، والراية



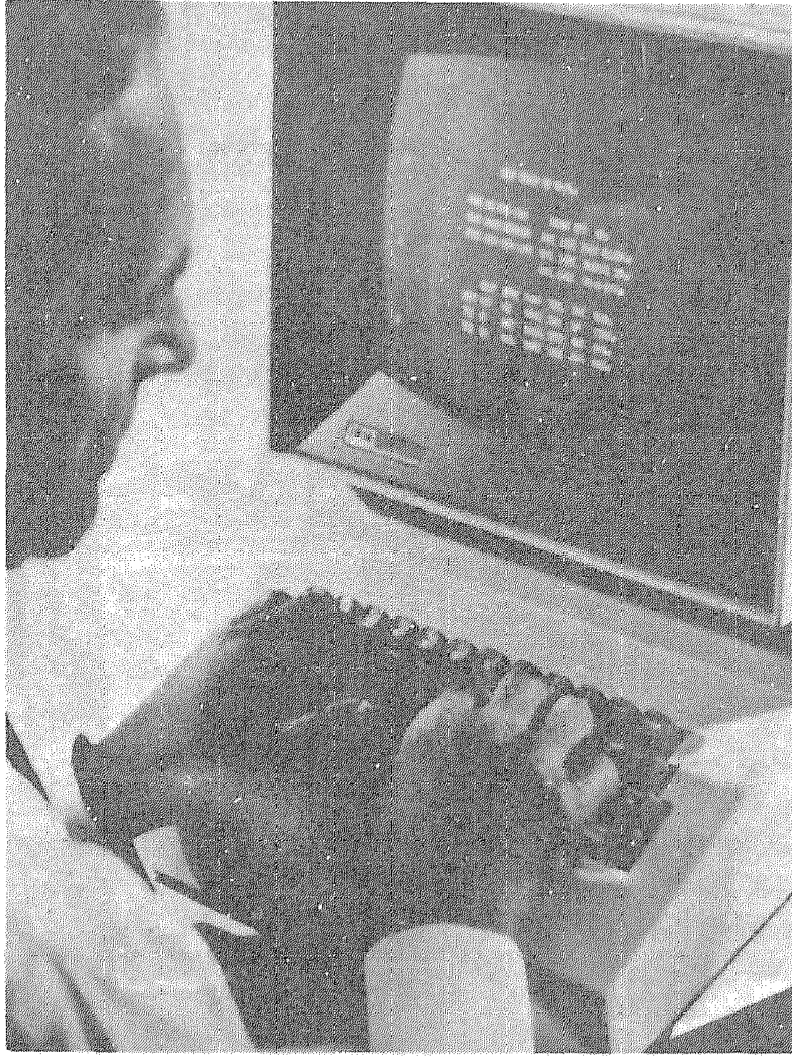
□ جهاز الميكروفيلم لتصوير الصفحات ووضعها في ارشيف خاص بدلا من الاحتفاظ بالمجموعات الكبيرة من الصحف اليومية.

الخضراء لقبيلتي كتانة ودغيم...

وهذا بالتالي يدعو إلى دراسة ومعرفة النظم والأسس التي قام عليها تكوين تلك الجيوش خلال تلك الحقب...

وتمد بعض الوثائق العربية بمعلومات شديدة الأهمية، لأنها تتعرض لبعض أسماء الخطط والأماكن التي عفى عليها الدهر وأصبحت في حكم المجهول وربما ترد في بعضها أسماء الأسواق والحارات والدروب[1] التي اندثرت وتذكر بعض اسواقها، وشوارعها المشهورة، وأسوارها المنيعة، وهذه المعلومات التي وردت في ثنايا تلك الوثائق قد تؤدي إلى الاهتمام بها واكتشافها واسترجاع أثرها ومعرفة معالمها، كما حصل في احدى المدن في غرب إفريقيا التي هجرت وطال عليها الأمد واختفت، حيث تم استرجاع معالمها بواسطة ما ورد من وصف خططها في بعض الوثائق..

والجدير بالذكر أن أغلب وثائق غرب إفريقيا، قبل الاستعمار الحديث تكتب باللغة العربية وذلك لقيام دول إسلامية في تلك البقاع، ويظهر ذلك جلياً في حركات الجهاد التي قام بها الشيخ عمر بن سعيد الفوتي في حوض السنغال والشيخ احمد محمد لبو (في ماسنة «مالي» وعاصمتها آن ذاك، حمد الله، التي هجرت الآن وأصبحت أثرا بعد عين) والشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجريا «وعاصمتها سكوتو». هذه الحركات الثلاث تركت كميات هائلة من الوثائق العربية



□ نافذة العقل «الالكتروني»... يستطيع المحرر ان يجلس ويطلب من الجهاز اي معلومات في اي موضوع... ولا يكاد ينتهي من طلبه حتى يجد الإجابة امامه على الشاشة.

التي تزخر بكثير من المعلومات البكر التي تفتقر إلى العناية والحفظ الجيد والعمل على فهرستها وتصنيفها وإعدادها للباحثين خاصة في مجال تاريخ إفريقيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين...

وفي هذه الوثائق قد ترد أسماء غير عربية دخلت العربية مثل كلمة بيمارستان «مستشفى» في وثائق الفاطميين والأيوبيين وترد هذه الأسماء في الغالب الأعم في وثائق البيع والهبة والوقف وأحياناً يحدد البائع أو الواقف المكان بالجهات الأربع كما ورد في وثيقة التمليك التي كتبها السلطان بادي لتمليك الفقيه عبد الرحمن بن خوجلي الدار التي ذكر حدودها في الوثيقة(٦)... وهذا بلا شك قد يساعد كثيراً في معرفة جغرافية وتاريخ تلك المناطق...

وتورد بعض الوثائق العربية وصفا للحالة الاجتماعية في القرى والمناشط والمنافع العامة ونظام الزراعة والري ومشاكل ماء الشرب وتجارة الملح.. وكما يرد في ثنايا بعض هذه الوثائق بعض المصطلحات التي سادت في تلك العصور واندثرت مع الزمن(٧)...

وأحياناً تذكر بعض الوثائق خطط بعض المدن الإسلامية الكبرى التي كانت حواضر للدويلات الإسلامية التي لا يزال البعض منها بينما اندثر البعض الآخر وأصبح أثرا بعد عين. وتفصل تلك الوثائق التقسيمات الدقيقة لتلك الخطط على أن هذه التفصيلات قد لا ترد في كتب الخطط أو كتب التاريخ(٨) مما يضفي على هذه الوثائق أهمية كبيرة، لأنها قد تفيد في دراسة تاريخ بعض المدن الهامة في العالم الإسلامي مثل تاريخ القاهرة

ودمشق وبغداد والإسكندرية والقدس وسواها..

هناك وثائق عربية تساعد في الدراسات الأثرية التاريخية التي لا نظير لها ولا سيما للآثار التي اندثرت وجاء وصفها في بعض الوثائق مثل مسجد اندثر أو قلعة(8).

هذا بالإضافة إلى بعض الوثائق الخاصة بوصف الآثار الإسلامية التي تفيض بالمصطلحات الفنية والأثرية المعمارية وهذه لها أهميتها في دراسة المصطلحات الخاصة بالعمارة والفنون والزخرفة العربية الإسلامية وهذه نجدها بكثرة في الوثائق المملوكية والعثمانية.. وكما يرد ايضا فيها وصف العمائر الحربية والقلاع والأسوار...

كما تزخر بعض الوثائق العربية بألوان من الحياة الاجتماعية والتعليمية في بعض العصور ولا سيما العصر الوسيط حيث توضح تلك الوثائق أثر الدين على حياة الناس وقد اشتهر العصر الوسيط بأنه عصر دين وحرب(9) الأمر الذي جعل أكثر وثائقه تدور حول الأوقاف والهبات والأسبلة وبناء المساجد والإنفاق على طلبة العلم وإنشاء مدارس القرآن.. وكما يظهر ايضا أثر الحرب عليهم من خلل وثائقهم التي تطفح بوصف الحروب وإعداد الجيوش لها وذكر الرباط في الثغور ويرد وصف الحلاوي والعلماء ونظام التعليم الديني ومكانته في نفوس الناس حكاما ورعية وأجلال العلماء وأغداق الأمراء والسلاطين الهبات والصدقات عليهم ولا سيما في عهد مملكة الفونج الإسلامية(10). وكما يتطرق البعض الآخر منها إلى نظام الوراقة والوراقين وحياة الصوفية ونظام الرقيق وأسواق النحاسة في تلك الحقب وعلاقة الدول الإسلامية مع بعض الدول الأخرى.. مثل العلاقات الودية بين خديو مصر والسلطان برغش سلطان زنجبار في القرن التاسع عشر(11)..

وهناك وثائق عربية تمدنا بمعلومات قيمة عن التاريخ الاقتصادي في العصر الوسيط وأنواع المقاييس والموازين والسكوكات من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والنقود النحاسية وعن شتى الصناعات السائدة في مختلف الأزمان مما يساعد في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في العصر الحاضر... ●

مصادر البحث

(١) التونسي، محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للنشر، ١٩٦٥..

(٢) د. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر على البحر الأحمر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩. القاهرة، مطبعة لجنة البيان، ١٩٥٩..

(٣) د. عبد العزيز عبد المجيد: التربية في السودان. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٩..

(٤) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضراته على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٧٠م..

(٥) د. محمد إبراهيم ابو سليم: الفونج والأرض. وثائق تمليك، الخرطوم، شعبة ابحاث السودان، ١٩٦٧م..

(٦) المقريزي، تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. ج ٢، القاهرة، مؤسسة الحلبي، بالاوفست...

(٧) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م...

الهوامش

(١) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضرات القاها على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، عام ١٩٧٠م..

(٢) د. شوقي عطا الله الحمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر، ١٨٨٣ ــ ١٨٧٩، ص ١٩٥ ــ ٢٤٥..

(٣) د. شوقي عطا الله الحمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر، ١٨٨٣ ــ ١٨٧٩، ص ٢٠١...

(٤) نفس المصدر، ص ٤١١...

(٥) المقريزي ــ تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. ج ٢، ص ١٠...

(٦) د. محمد إبراهيم أبو سليم: الفونج والأرض ــ وثائق تمليك ــ الوثيقة رقم ١٨، ص ١٠١...

(٧) د. عبد اللطيف: محاضرات القاها على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، عام ١٩٧٠...

(٨) نفس المرجع...

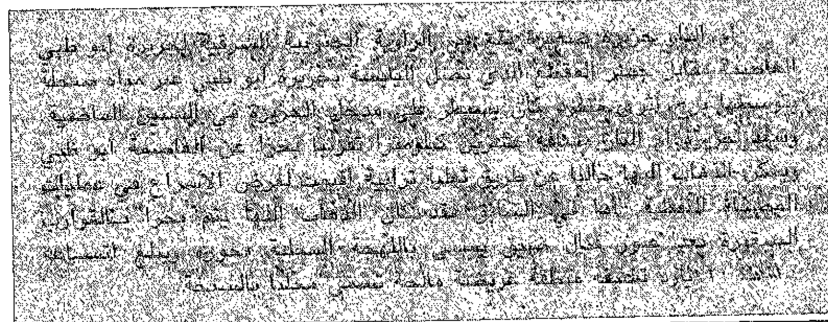
(٩) د. عبد اللطيف إبراهيم: محاضراته على طلبة الوثائق بجامعة أم درمان الإسلامية، لعام ١٩٧٠م...

(١٠) د. عبد العزيز امين عبد المجيد: التربية في السودان. ص ١١٤.

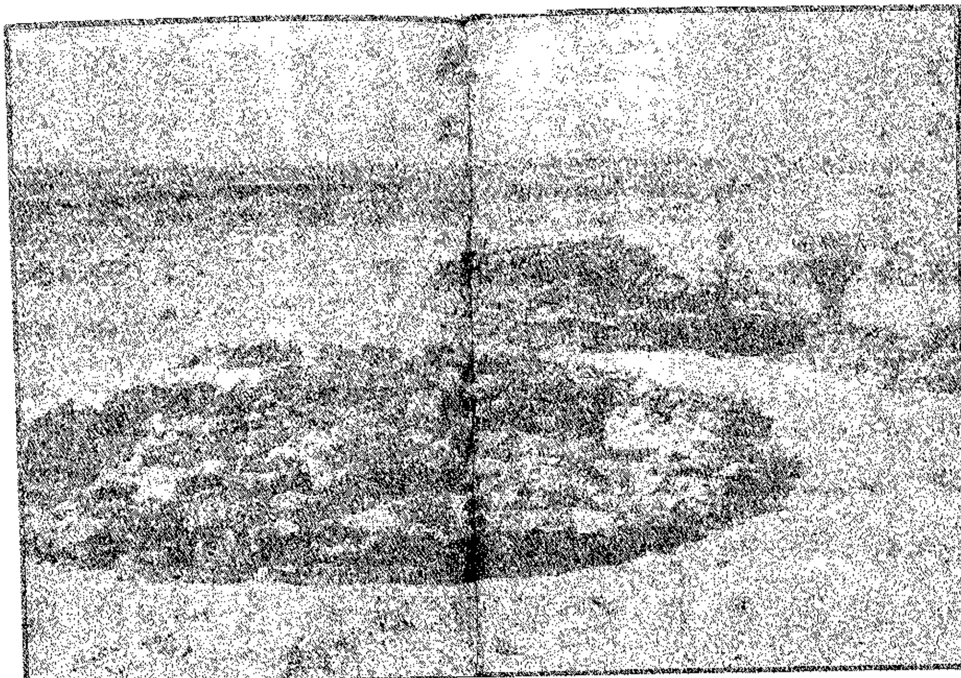
(١١) د. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحز الأحمر ١٨٦٣ ــ ١٨٧٩. ص ٣٣٩.

المدافن الأثرية في جزيرة أم النار

قسم التوثيق والأبحاث


أم النار جزيرة صغيرة تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية لجزيرة أبو ظبي [illegible] ... ويمكن الذهاب إليها حاليا عن طريق [illegible]

تبلغ مساحة الجزيرة ثلاثة كيلومترات طولا وكيلومترا واحدا عرضا. والجزيرة مقفرة خالية من السكان كما أنها حجرية خالية تماما من الخضرة والأشجار ما عدا شجرة يتيمة حارسة الجزيرة والظل الوحيد فيها، وخزان ماء بني من الأسمنت في الآونة الأخيرة لتجميع مياه الأمطار التي لا يزيد معدل سقوطها في هذه المنطقة عن خمس بوصات. وطبيعة الجزيرة صخرية خشنة تتوسطها هضبة مكونة من أحجار جيرية كلسية وسواحلها رملية عريضة ذات جمال أخاذ يمكن الاستفادة منها كبلاجات سياحية.



□ مدافن حجرية منقبة في أم النار.

وتعج الهضبة المذكورة الآن بالعمل المتواصل لانشاء مصفاة للنفط التي أمر صاحب السمو الشيخ زايد بانشائها وقام بوضع حجر الأساس لها. وبهذا تكون الجزيرة مركزا لصرحين حضاريين — المدافن الاثارية ومنطقة الاستيطان لسكان ما قبل التاريخ وصرح حضاري حديث يتمثل في آخر التطورات العصرية الصناعية وهي الصناعة النفطية. ومن المحتمل أن تكون تسمية هذه الجزيرة قد أتت نتيجة لعمليات الصهر بالنار التي كانت تجري في العهد البرونزي لما قبل التاريخ وذلك لأجل صناعة نصال الرماح والخناجر والسكاكين والأوعية البرونزية.

وقد قام صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة وحاكم أبو ظبي بزيارته الأولى لمنطقة الآثار في جزيرة «أم النار» أثناء قيام البعثة الدنماركية للتنقيب عن الآثار بحفرياتها الاثارية عام ١٩٦٠. ومنذ ذلك الحين أظهر سموه اهتماما خاصا بتاريخ وآثار أبو ظبي، وقد تجلى اهتمام سموه في زياراته المتكررة للمناطق الأثرية في كل من أبو ظبي والمنطقة الشرقية بالعين من جهة وفي السهر على راحة البعثات الاثارية الأجنبية والمحلية وتشجيعها ماديا ومعنويا من جهة ثانية.

قامت البعثة الدنماركية بأعمال الحفريات والتنقيب في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٩ — ١٩٦٢ في تسعة مدافن واستطاعت أن تحصل على نتائج قيمة ساعدت على تحديد تاريخ وحضارة هذه المنطقة. وفيما يلي استعراض لأهم النتائج:

يوجد في جزيرة أم النار مدافن أثرية يقارب عددها الخمسين تقع على التل الشمالي الشرقي للجزيرة، ومنطقة سكنى اثارية على مقربة من منطقة المدافن على المنحدر الشرقي للتل الذي تقع عليه المدافن على قرب من مياه البحر الضحلة.

وهذه المدافن تزيد في الحجم والارتفاع نسبيا حسب أهمية الشخص المدفون ومقامه الاجتماعي. ولهذا نلاحظ كثرة المقابر الصغيرة وقلة المقابر الكبيرة حسب التدرج الاجتماعي الذي كان سائدا في العهد البرونزي لما قبل التاريخ.

تتكون المدافن الأثرية من أكوام من الأحجار المنقورة والمقطوعة مصفوفة على بعضها بتنظيم هندسي يتناسب والشكل للمدفن. وهذه المدافن مستديرة الشكل ولها جدار خارجي مبني على أحجار كلسية صغيرة مقطوعة بدقة ومركبة فوق بعضها البعض باتقان تام دون استعمال الطين أو أي مادة ربط أخرى. ويتألف القسم الداخلي لكل من هذه المدافن من عدد من اللحود يفصلها عن بعضها البعض جدران، أحجارها خشنة غير منقورة ويتراوح قطر هذه المدافن الدائرية ما بين ثلاثة أمتار إلى اثني عشر مترا كحد أقصى ولا يزيد ارتفاعها في الغالب عن مترين.

تمتاز الجدران الخارجية بالازدواجية، والاختلاف في الصقل الخارجي للأحجار حسب حجمها وأهميتها. ففي المدافن الكبيرة نجد أن الجدران الخارجية مبنية من أحجار كبيرة مصقولة صقلا جيدا ذات تشكيل وتثبيت دقيقين

رصت فوق بعضها دونما حاجة إلى استعمال مادة للربط، بينما نجد هبوط مستوى أعمال النحت والتشكيل والصقل في المدافن الصغيرة.

ونلاحظ كذلك أن الحجارة المنحوتة المصقولة تكون أكبر في أدوار البناء السفلي، وتصغر في الحجم كلما ارتفع البناء. أما الجدار الدائري الخارجي فيستند على قاعدة من قوالب حجرية كبيرة ارتفاعها ٢٠ سم تقريبا، أما ارتفاع الجداران الدائرية فيبلغ ٧٠ ــ ١٤٠ سم تقريبا فوق القاعدة، ويبلغ عدد مداميكه في أقصى الحالات عشرة مداميك حيث تميل هذه إلى الداخل. أما الجدار الدائري الداخلي فيتصف بالجرشة والخشونة ويوجد في الجدار الدائري لكل قبر فتحة كبيرة نسبياً تؤدي إلى نهاية الممر الأوسط الذي يفصل حجرات الدفن. وقد تكثر هذه الفتحات حسب الفواصل الداخلية، وقد اعتيد أن تنحت الأحجار المستعملة للمداخل نحتاً خاصاً ودقيقاً، وقد وجدت بعض أحجار هذه المداخل في وضع سليم وكان بعضها ذا فتحة كبيرة إلى درجة تكفي لدخول شخص. أن بعض القوالب الحجرية التي استعملت في البناء كانت مزخرفة بصور حيوانات كالثيران والغزلان والماعز والمها والجمال والثعابين وصور الإلهة.

إذا انتقلنا إلى داخل المدافن نجدها قد قسمت إلى قسمين متساويين يفصلهما ممر ويعاد تقسيم كل منهما إلى قسمين آخرين متساويين بجدار يمتد من الجدار الدائري إلى جدار الممر الأوسط في زاوية مستقيمة ثم يعاد تقسيم الأربعة اقسام إلى قسمين لكل منهما بجدران منحنية بطريقة هندسية بحيث تكون لحوداً منفصلة للدفن وهي عبارة عن عنابر واطئة تشبه الصناديق.

أما سقوف هذه المدافن فتتكون من مساطب كبيرة تستند على أحجار بارزة يقارب ارتفاعها ما بين ٧٠ ــ ٩٠ سم وقد عثر على أحد هذه المساطب السقفية، وهي لا تزال في موضعها الأصلي، أما بقية الأماكن فقد هدمت كلية وبقيت في أماكن سقوطها. وكانت مساطب التسقيف توصل بأقرب نقطة ممكنة لها، إذ كلما ازدادت مساحة التسقيف ازدادت بالتالي الجدارن التي تستند عليها السقوف.

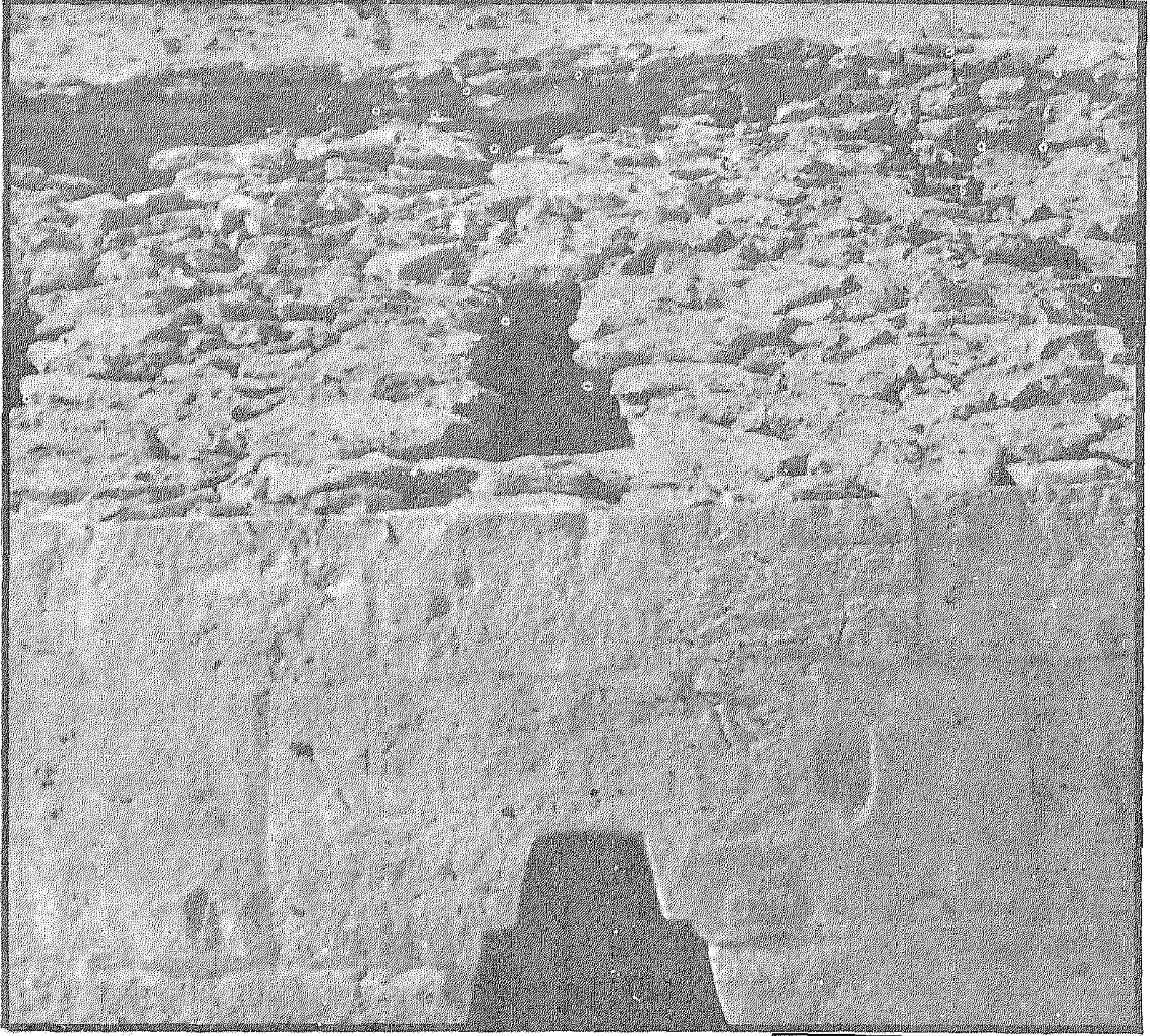
وقد كثر العثور على الرسوم البارزة التي تزين القوالب الحجرية لمداخل القبور، ومما يستحق الذكر تكراراً رسم الثور الأحدب. ويمثل هذا الرسم رسوم مشابهة عثر عليها في الخضارة الكلية وشاهي تمب في وادي السند وكذلك رسوم الحيوانات الأخرى كالقطيع والغزلان والظباء والمها والأفاعي والجوال.

وقد عثر في جميع عنابر الدفن المتلئة بالرمال والأحجار المتساقطة على بقايا هياكل عظمية آدمية وتتميز طبقة المواد العضوية المتحللة بلونها الأسمر الغامق أو بقايا العظام المتناثرة على البلاط الحجري لعنابر الدفن «اللحود». لم يكن هناك نظام معين للدفن بل كان كل شيء مكوماً على بعضه بدون تنظيم ظاهري على الأقل وقد تهشمت معظم الهياكل العظمية نتيجة تساقط الأحجار عليها، ولم يكن هناك اتجاه خاص في وضع الجثة كما هي الحال عند المسلمين حيث توضع متجهة للكعبة الشريفة.

ففي احدى القبور مثلا وجدت هياكل عظمية أحدها مقرفص الرأس إلى الشمال، والآخر ممتد والرأس إلى الشمال كذلك. وهذا ولا تتخذ الجثة مكاناً معيناً في اللحد إذ قد تتوسطه أو تلاصق الجدران وقد تستند على قاعدة جدار المدفن.

لقد استدل من تراكم بقايا الجثث عند مدخل العنابر على أن اللحد كان يستعمل عدة مرات، ففي كل مرة تدفن جثة واحدة فقط. إن كل عملية دفن جديدة تتطلب إخلاء البقايا العظمية وكنسها إلى العنبر الأمامي، ويختلف عدد الموتى من مدفن لآخر ويعتمد كذلك على حجم المدفن وسعته وعدد لحوده. وقد بلغ عدد الذين دفنوا في أحد المدافن ١٥ شخصاً.

والأمر الذي يسترعي الانتباه هو تقديم الضحايا الآدمية عند الدفن كقرابين، وقد يكون تفسير ذلك أن يصاحب الميت خدمه أو زوجاته في مماته كما كانت الحال في بعض البلدان الأخرى. وقد عثر على البعض من الهياكل العظيمة خارج جدار المدفن الدائري يمكن أن تكون قرابين قدمت لمن دفنوا داخل القبر. وقد اكتشف مع الهياكل العظيمة الادمية كميات كبيرة من الخرز المختلفة الأشكال والأحجام بعضها منضد في صفوف مع قطع قماش مما يدل على أن الميت



□ واجهة احد مداخل جزيرة ام النار بعد الصيانة ــ لاحظ المدخل.

كان يدفن بلباسه، ويتميز هذا الخرز بكونه صغير الحجم أجوف واسطواني الشكل من الحجر الرمادي.

وقد عثر مع الجثث المدفونة على أواني فخارية مصنوعة من الطين الأحمر أو الطين الرملي الأجرش. وتتميز هذه الأواني الفخارية بأنها مصقولة صقلاً جيداً عدا الكبيرة منها وهي بشكل عام جيدة الصنع نظرا لاستعمال العجلة الدوارة. أما الأواني الصغيرة فمصنوعة من طين ناعم ذو لون رمادي نتيجة للاحتراق، ولها جدار رقيق أما الأواني الكبيرة فقد صنعت من طين رملي ولهذا فهي خشنة الملمس جرشاء بدون صقل. وهذه الأواني الفخارية أما أن تكون كروية الشكل تستند على قاعدة قوية، وأما مخروطة الشكل بأكتاف مائلة وقاعدة عريضة وجميعها مزخرفة وملونة وعليها رسومات صور حيوانات أغلبها يمثل شكل الثور الأحدب السائد في حضارة وادي السند. وقد عثر مع الفخار على خناجر برونزية ونحاسية ذات مقابض ونصال حادة وأوعية رخامية وأدوات غزل نصف كروية مصنوعة من العظم.

وبالإضافة إلى المقابر المذكورة تم اكتشاف منطقة استيطان تقارب من ٢٠٠ ــ ٣٠٠ متر طولا ومن ١٠٠ ــ ١٥٠ متراً عرضا وقد غطي قسم منها بآثار استيطان من العهود التاريخية المتأخرة كما يوجد على هضاب الجزيرة عدد كبير من حجارة الصوان المدببة ذات اللون الأخضر جمعت لغرض استعمالها كنصال رماح.

أما عن العلاقة التاريخية لهذه الحضارة مع الحضارات الأخرى فنود أن نقول هنا أنه نظراً للتقارب الجغرافي والاجتماعي في المنطقة حتى العهود التاريخية الغابرة، فقد تبين أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذه المدافن وتلك التي اكتشفت في «أم الماء» بقطر وتلال الدفن في أقصى الجنوب الشرقي بالبحرين قرب منطقة المطلة والمدافن الواقعة قرب طريق البديع من حيث إحاطتها بجدار دائري من حجارة جيرية كلسية. ويعود تاريخ هذه المدافن وأماكن الاستيطان إلى العهد البرونزي منذ ٣٠٠٠ ق. م. تقريبا عهد الأسر التاريخية القديمة أي عصر فجر السلالات. وهناك تشابه كبير بين الفخار الذي عثر عليه في «أم النار» والفخار الذي سبق اكتشافه في كلي جنوب منطقة بلوجستان، وحضارة كلي هي إحدى الحضارات التي سادت في وادي السند في العهد البرونزي وكان لها صلة قوية بحضارة وادي الرافدين والمناطق البحرية الواقعة بينهما ومن ضمنها جزيرة «أم النار».

إن أوجه الشبه بين الحضارة التي سادت في كلي من جهة وأم النار من جهة ثانية تبرز في الأواني الفخارية المتميزة بالزخارف السوداء المتشابهة على أرضية حمراء.

وقد اتخذت تلك الزخرفة أشكالاً هندسية كالمثلثات والتعرجات والخطوط المتموجة وبعض صور الحيوانات وخاصة الثور الأحدب الذي وجدت صور منه مشابهة له في حضارة أم النار. وعثر بمنطقة شاهي تمب في الباكستان على مقابر تحوي جثثاً في وضع مقرفص وضعت إلى جانبها أدوات تتكون من أوان فخارية محززة وأدوات نحاسية وبرونزية وتماثيل آلهة وهي تعاصر الحضارة الكلية وحضارة أم النار.

إن المواقع المتوسطة بين وادي السند ووادي الرافدين كجزيرة أم النار والبحرين وفيلكه تمثل المحطات الرئيسية للتجارة القديمة والصلات البحرية. أما المواقع البرية مثل كلي وشاهي تمب وبامبور في جنوب شرقي ايران فقد كانت تمثل الشرايين البرية لتلك المواصلات والتجارة. كانت بلدة كلي في وادي السند أحد هذه المراكز الرئيسية وهي في طابعها وشخصيتها الطبيعية المادية والحضارية تتشابه مع المدنيات الغابرة في الشرق الأوسط التي تميزت بكونها تقع في واد خصيب تحيط به الصحارى أو الجبال كمانع طبيعي ضد أخطار الغزوات. لقد تركت التجارة بين وادي الرافدين ووادي السند آثارها على الجانبين في الطرق التي مرت بها سواء في أبو ظبي أو جزيرة فيلكه بالكويت أو ديلمو (البحرين) حيث أن طبيعة التقارب الجغرافي تفرض التقارب الحضاري والمادي نتيجة لسهولة الانتقال.

وقد يكون انتقال مثل هذه المميزات الحضارية المادية قد تم أما شرقاً عن طريق البحر مباشرة من وادي السند إلى سواحل عمان ومنها ساحل عمان الشمالي الشرقي ثم إلى جزيرة «أم النار» في أبو ظبي، أو عن الطريق البري بواسطة «بامبور» (وكرمان) إلى الساحل الشرقي للخليج العربي حول منطقة بندر عباس الحالية ومنها بحراً إلى هذه المنطقة. وقد عثر على مناطق أثرية ممتدة بين وادي السند ووادي الرافدين تكمل بعضها في المميزات الحضارية، ولا يعني ذلك مطلقاً أن أهالي تلك البلدان التي سادت فيها الحضارة المذكورة قد عاشوا في هذه المنطقة بل يعني تشابهاً ظاهراً في المميزات الحضارية نتيجة الاتصالات التجارية. وقد تسود حضارة مادية وتنتشر إلى المناطق المجاورة، كما تنتشر اليوم الموضة والصناعات المتطورة لتفرض نفسها فرضاً حضارياً لا إكراه فيه.

إن اكتشاف مثل هذه المواقع والعثور على الأدوات المحكمة الصنع والزخرفة والتي استعملها الإنسان الظبياني الأول في حياته اليومية ومئات المدافن الحجرية الأخرى أمدتنا بمعلومات قيمة عن التقدم الحضاري الذي ساد هذه المنطقة، وألقت ضوءاً ساطعاً على حقبة منسية من تاريخ هذا الشعب. وقد دلت هذه المدافن والمناطق السكنية والأدوات التي استعملت على أنها بنيت ووضعت في عصر ساد فيه الرخاء وانتشرت فيه الصناعات المحلية ومنها صناعة الفخار والملابس المطرزة بالخرز والسيوف والخناجر والتطور المعماري في البناء.

●

سباق سيّارات بين بكين وباريس عام ١٩٠٧

د. سامي زكي



ما يزال عام ١٩٠٧، في سجل السباقات العالمية، موضع زهو الايطاليين في تلك السنة. فقد برهنت «فيات» على كفاءتها، وثبتت للتجربة الكبرى في سباق حول العالم، وفازت بالجائزة الكبرى لنادي سيارات فرنسا، فقد حلت «ايتالا»، السيارة عابرة الجبال، في المركز الأول، في امتحان طويل كان يعتبر ذلك العهد، مستحيلا، وهو امتحان قطع المسافة ما بين بيكين وباريس.

وكان واضحا ان التنافس في ذلك الامتحان الصعب، قائم بين صناعة السيارات الفرنسية وصناعتها في ايطاليا بين التقنيين الايطاليين والفرنسيين، ومن منهم استطاع التفوق في مجال تحسين الصناعة، وخاصة صناعة سيارات السباق. كما ان الامتحان فتح الباب واسعا امام السباقات حول العالم، وهو امر لم يحدث قبل ١٩٠٧.

لقد ظهرت فكرة السباقات الطويلة المدى في الأوساط الصناعية الكبرى، واتخذت المبادرة

جريدة «لوماتان» على نحو اقتراح، عده القراء في البدء مزحة سخيفة. وقد جاء الاقتراح على النحو التالي: باريس ـ بكين، بالسيارات، انه تحد ضخم.

وقد كتب رئيس التحرير، داعما الاقتراح، منددا بالذين يتصدون للسباقات حول العالم، فقال: «ما يجب ان نبرهن عليه اليوم هو اننا نستطيع الذهاب بالسيارة الى اي مكان في العالم. نحن نسأل المصممين الفرنسيين، وغير الفرنسيين: هل بينكم من يفكر في الذهاب بالسيارة الى بكين هذا الصيف؟».

اهي مزحة؟

كذلك ظهر الاقتراح في جريدة «لوماتان» في ٣١ كانون الثاني ١٩٠٧ واذا الرأي العام الفرنسي يبدي حماسا منقطع النظير. ومنذ صباح اليوم التالي، بدأت الرسائل ترد على قلم التحرير، معلنة تسجيل اسماء اصحابها في السباق. وكانت بينها رسالة من احد اكبر صانعي السيارات المركيز دو ديون. مما جعل بعضهم يعتقد انه كان وراء الاقتراح.

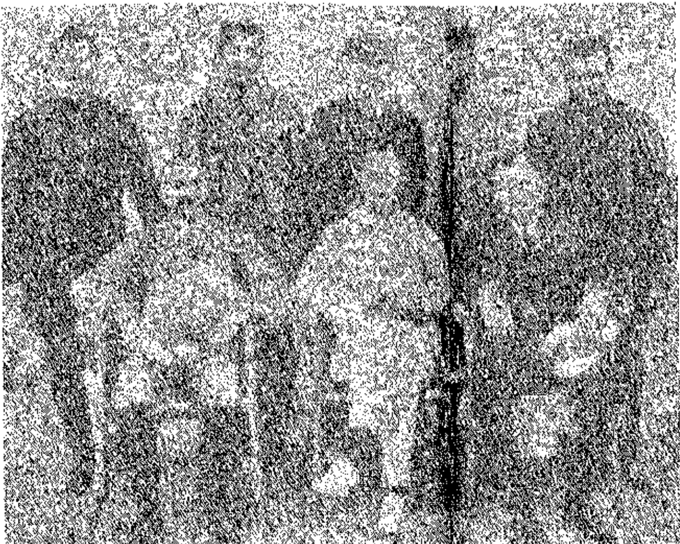
وكان اول المنافسين مصمم دراجات بثلاثة دواليب. ولكن السباق لم يطرح لمثل دراجاته، فاستبعد طلبه، واعتبر إعلانه عن المساهمة، من باب الدعاية لصناعته.

خلال اسبوع واحد، تم تسجيل عشرة اسماء انطبقت عليها مواصفات من يساهم في السباق. وشكلت لجنة عليا، رئسها احد الوزراء الفرنسيين القدامى في بكين، لوضع خريطة مسار السيارات المتسابقة، ونظام لتموين السيارات والسائقين خلال الرحلة الطويلة.

وسرعان ما انعكس مسار الرحلة. فبدل الذهاب من باريس الى بكين، اصبحت نقطة البداية بكين، على ان يبدأ السباق في حزيران، ويستمر السباق ثلاثة اشهر، وتقطع السيارات المنطقة الصعبة في اشهر الصيف وقبل تساقط الثلوج وتراكم الأوحال.

ومنذ مطالع شباط، احتلت اخبار السباق الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات. ورغم ان المعنيين بشؤون السباق كانوا «يسهّلون» مهمة المتسابقين، فان الوضع ما بين الصين وروسيا، عبر سيبيريا، لم يكن حسنا، بل كان سيئا جدا، اذ كان عدد كبير من الجنود الروس، غداة انكسار روسيا في حربها مع اليابان، قد سرحتهم اليابان بعد اسرهم، فشردوا في تلك الأرض المقفرة تقريبا، فشكلوا جماعات للسطو، وفرضوا الخوة على القرى النادرة، واعملوا السرقة والنهب في كل مكان، لذلك كان يخشى اذاهم على المتسابقين. كما ان بوادر التحرك الثوري كانت واضحة في روسيا كلها. ولم يكن الوضع افضل من ذلك في منغوليا ومنشوريا والصين، التي اتجهت اليها مطامع الغرب التجارية. وقد ارسلت دول الغرب بعثات تجارية، تعرضت لكمائن مسلحة فقتل العديد من افرادها. وكان وجود الأجنبي على ارض الصين يعتبر اهانة كبرى. وعُدّ سلوك السيارات الأجنبية على طريق الصين المقدسة تدنيسا للمقدسات. واتخاذ بكين نقطة بداية للسباق، اثار شكوك رئيس وزراء الصين، الذي طرح السؤال التالي: «كم سيارة ستحاول ربط باريس ببكين؟». واعتبر سلوك طريق الصين منغوليا «غير عملي».

وارتأى البنك الروسي ـ الصيني المرور من بكين الى اورغا، لاحياء طريق القوافل القديمة.



صورة للمتسابقين مجتمعين.

مع العلم ان الطريق في اورغا تشبه السلالم ويكاد يستحيل حتى على الدواب الدربة قطعها. اوشكت اللجنة العليا ان تلغي فكرة السباق. ولكن رسالة وردت على جريدة «لوماتان» من الديبلوماسي الايطالي الأمير سيبيون بورغيز، يرجو فيها تسجيل اسمه في قائمة المتبارين، بسيارة «ايتالا».

في ١١ شباط ١٩٠٧ عقد اجتماع عام ضم اعضاء اللجنة وكل المتسابقين، في مكاتب «لوماتان»، لوضع تفاصيل السباق. الوحيد الذي لم يحضر هو الأمير بورغيز، ولكن وكيل سيارات ايتالا ناب عنه. تقرر إرسال السيارات بطريق البحر الى بكين، من مرسيليا، الرابع عشر من شباط، بينما يسافر المتسابقون في قطار سيبيريا ليكونوا في بكين، في اوائل حزيران. ولكن الأمور جرت على عكس التقديرات.

قطع الطريق على الجواسيس

واذا كانت لجنة الشرف المجتمعة في سان بترسبورغ، قد بذلت جهودا محمودة، واذا كان القيصر نفسه ابدى اهتماما كبيرا بالسباق، فان الأمر في الصين كان مختلفا.

وضع الروس انفسهم في خدمة المتبارين الشجعان، وقدموا اليهم تسهيلات كبرى، واعفوهم من الموجبات الجمركية على السيارات، وقطع الغيار، وسمحت لهم باستعمال البرق مجانا، ليلا ونهارا، والانتقال مجانا بقطار سيبيريا في حال تعطل السيارات. واعدت الوسائل لابلاغ المتسابقين بأحوال الطرق، خاصة حين تصبح غير سالكة لسبب من الأسباب.

اما في الجانب الصيني، فقد ظهرت التعقيدات منذ اللحظة الأولى. اذ اعتبرت سلطات «مجلس الامبراطورية المقدسة الكبير» السباق مقدمة لغزو روسي، ولهذا كان على رأس المتسابقين ديبلوماسي عسكري ايطالي، يعتزم عبور الجدار العظيم.

لذلك مارس الوزراء الفرنسيون والروس ضغوطهم حتى وافق الصينيون، شرط سلوك المتسابقين طريق منشوريا. والا، فانهم لن يكونوا مسؤولين عن امن المتسابقين، اذا عبروا منغوليا. ولكن السفير الفرنسي اصر على طريق منغوليا متحملا مسؤولية الخطر. فوافق الصينيون، ولكنهم منحوا جوازات مرور للسائقين وحدهم، مما يعرضهم لحرمانهم حتى من سياراتهم، فلا يستطيعون قطع المسافات دون مساعديهم. خاصة وان قطاع الطرق قد يفاجئونهم في اية ناحية. وقامت محاولات جديدة لاقناع السلطات الصينية. وفي هذا الوقت كانت السيارات قد وصلت بكين، وقامت بجولة في شوارعها. ورضخت السلطات الصينية، ولكنها رفضت ترجمة الجوازات الى المنغولية.

هل يتم السباق؟

كم كان على المتسابقين ان ينتظروا انجاز الجوازات، في حزيران من عام ١٩٠٧؟ وهل كان عليهم ان يتأخروا طويلا قبل حلول فصل الأمطار والثلوج؟

سجلت خمس وعشرون سيارة في الرهان. وقد سجلها صانعوها او مالكوها. وكان اولهم المركيز دوديون، الذي قدم للسباق سيارتين (١٠ احصنة وخمسة عشر حصانا. ثم سجلت الأخيرة بعد زمن). وشاءت الشركة البلجيكية المعدنية ان تشترك بسيارتين (٤٠ حصانا و ٣٠ حصانا).

اما البارون دوكيسن فسجل سيارته البانهارد (١٨ حصانا). واوصى الكونت غروبيلو الارستقراطي الايطالي ــ وهو من محبي الفيات ــ على سيارة خاصة.

وفي شباط سجل اناس جدد اسماءهم وسياراتهم، ووقعوا نوعا من العقد يعلنون فيه خضوعهم للقوانين المرعية. ومن ابرزها منع السفر بالخط الحديدي، ودفع الفي فرنك عن كل سيارة مشتركة.

في النهاية، بلغت خمس سيارات بيكين في حزيران ١٩٠٧. ومن ابرز الواصلين الدبلوماسي الارستقراطي الايطالي المعروف برحلاته ومغامراته، الأمير سيبيون بورغيز، الذي كان قد عاد حديثا من رحلة الى اواسط آسيا، واجتاز اواسط الألب متسلقا. كان عمره ستا وثلاثين سنة، وقت السباق. وكان له اخ دبلوماسي في العاصمة الصينية. لذلك استعجل الرحيل، بعد ان اعد المؤن، واللوازم، والمعلومات الكافية عن الطريق.

وانضم الى المتسابقين شارل غودار، المعروف بانتصاراته العديدة، ولكن بين مدينة ومدينة تليها، لا بين بيكين وباريس. اما السيارة التي اشترك فيها فتخص الشركة البلجيكية المعدنية. ولكنه بعد يسير وقت عرف ان اسمه غير موجود على اللائحة. فسافر الى هولندا ليقابل صاحب شركة سبايكر، فاذا اخوه، مدير الشركة قد توفي. ولم يقنعه بالمساهمة الا بعد جهد، وبعد ان افهمه ان جريدة لوماتان تتولى نقل السيارات الى بكين، وان دفع مبلغ ٢٠٠٠ فرنك سيكون في بيكين، وان اشتراك سيارة مصنعة يعني دعاية كبيرة ومجانية، اذ كل الصحف ستكتب يوميا عن السباق.

رافق غودار في الرحلة الصحفي المعروف آنذاك، جان دوتايي، المعلق في جريدة لوماتان، والمشهور بمغامراته الصحفية، ورحلاته الى العديد من اقطار العالم.

ومن بين المشتركين المغامر اوغوست بونس، مع سيارة من شركة كونتال، وقد رافقه ميكانيكي من الشركة.

واشتركت شركة دوديون بسيارتين (١٠ احصنة) وسائقين معروفين هما: فيكتور كولينيون، وجورج كورميي الذي رافقه الصحفي الايطالي ادواردو لونغوني مراسل صحيفة ايل سكولو الايطالية.

شهر في البحر

ابحرت السيارات المتسابقة بطريق البحر: من مرسيليا، ومن جنوى. وقد استغرقت الرحلة شهرا كاملا.

في هذا الوقت كان بعض المتسابقين قد وصلوا الى بكين، وبدؤوا يستكشفون الطريق التي سيسلكونها في السباق.



ثلاث صور لما عاناه المتسابقون.

وقد فوجىء الكثيرون ان الخرائط الموضوعة للطريق غير صحيحة، ذلك ان الدولة الصينية مدت خطا حديديا غير معالم الطريق، وحولها الى اماكن اخرى.

وفي الواحد والثلاثين من ايار وصلت السيارات الى مرفأ تيان تسين، على ظهر الباخرة فون تيربيتز.

واجه شارل غودار مشكلة جديدة، اذ لم يكن يملك ألفي فرنك يدفعها للقيمين على السباق. ولجأ الى سفير هولندا الذي ضمن المبلغ.

وكان على المتبارين استكشاف الطريق الجديدة، وما طرأ على القديمة من تحويرات وتعديلات. وقد تبين لهم انها تعبر مناطق صعبة جدا، منها الصخري، ومنها الموحل، عدا المنعطفات الخطرة في بعض المرتفعات. هذا الى جسور على بعض الأنهر، اضطروا الى اصلاح بعض اجزائها بأنفسهم. يضاف الى كل هذا ان الصينيين حين اقاموا الخط الحديدي الذي حور الطريق الأساسية، قد تركوا في الطريق الجديدة، احيانا، ركاما من الصخور والأتربة. فاذا هي عوائق صعبة التذليل.

حين عاد الأمير بورغيز من رحلة استكشاف الطريق، كان جد متشائم لاستحالة عبور السيارات العوائق. لذلك قرر مع اخوانه شراء جنازير، ودواليب، واستخدام الجرارات، لسحب السيارات عند الضرورة، ولازالة العوائق ان امكن، او تحوير بعض المعابر.

الأسبوع الحاسم

اجرى الجميع الفحوص على سياراتهم. وغدت جميعها جاهزة خلال الأسبوع الأول من حزيران (٢ ــ ٩)، الا ايطالا التي وجد الأمير بورغيز انها ثقيلة جدا، فخفف منها قرابة (٥٠٠) كغ اذ تخلص من معظم الزوائد في الجسم.

وقدمت سفارات فرنسا وايطاليا وهولندا الضمانات المطلوبة الى حكومة بكين. غير ان صعوبات جديدة نجمت، اذ رفضت الحكومة الصينية اعطاء جوازات مرور عبر جدار الصين المقدس. كما ان بونس لم يتلق كتاب الاعتماد ليحصل على المال الضروري، وان غودار لم يكن ينتظر اي كتاب اعتماد، ولكنه كان يعول على الأصدقاء ومن يعنيهم نجاحه في السباق. ولكن كل هذه الصعاب حلت. فوافق الصينيون على عبور الجدار بعد تدخل الوزير الفرنسي. ودفع رئيس شركة سبايكر المال لغودار، ووصلت بونس الأموال اللازمة.

وقد لام الكثيرون بورغيز لاستقلاليته في تدبير شؤون رحلته، من تأمين البنزين بواسطة الجمال، وتأمين المؤن على طول الطريق بين بكين ونهاية سيبيريا.

غير ان الحكومة الصينية، ضمانا لحياة المتسابقين، جعلتهم جميعا يوقعون على عقد، يقرون فيه التعاون طوال الطريق. فقد تتعطل سيارة، او تغور في الأوحال، او تصطدم بعقبات.

انتهت معاملات الجوازات في التاسع من حزيران. وحدد موعد الرحيل في العاشر من حزيران.

باريس على بعد ١٦٠٠٠ كم

بدأ السباق الساعة السابعة صباح العاشر من حزيران. كان النهار غائما وممطرا. وقد امتلأت ساحة الانطلاق (فوبرون) رغم ذلك، بجمهور كبير جدا. وكان كل الأوروبيين المقيمين في بكين هناك، وقد حملوا الهدايا والزهور للمتبارين. وحضر حفل الانطلاق مدير بوليس بكين الذي امر باخلاء كل الشوارع التي تمر بها

السيارات. واكثر ما اثار اعجاب الجمهور سيارة دوديون الصغيرة المحملة بالحقائب، وقطع الغيار، والأدوات، والواح الخشب، والمزالج، والخطافات، والرفوش والفؤوس. اما السبايكر فلم تحمل الا الدواليب.

واعطت زوجة السكرتير الأول في السفارة الفرنسية اشارة الانطلاق، بكسر زجاجة شمبانيا على سطح ايطالا. واتخذت السيارات الخمس طريقها الى باريس، تحف بها آلاف الصينيين الواقفين على الأرصفة، وهم يصفقون ويطلقون الهتافات.

ضياع اثنين

لم تمش السيارات مئات الأمتار حتى اكتشفت القافلة ضياع اثنين (دوديون الثانية، وسيارة كونتال ذات الدواليب الثلاثة). رفض بورغيز التوقف، وتابع مسيرته، بينما كلفت السبايكر (غودار) البحث عن السيارتين. وقد استغرق ذلك ثلاث ساعات.

عند مخرج المدينة، صادفت السيارات موقعا رمليا موحلا غاصت فيه. وقد استخدمت الثيران لاخراجها من المأزق، ولكن الثيران خافت من صوت المحركات، ولم تنفع معها المحاولات. ونصح كونتال بالتخلي عن السباق، والسفر بالقطار الى نان كيبو، حيث تتجمع السيارات في نهاية اول مرحلة ففعل. ولم تستطع السيارات الباقية الخلاص من البؤرة الموحلة الا بعد جهد كبير.

جسور المرمر

التقت السيارات بسيارة بورغيز عند الجسور القائمة فوق نهر شا — هو. وكانت متهدمة بسبب تقادم الزمن والاهمال. فقد انهارت مسطحاتها جميعها تقريبا. وباتت بلاطات المرمر الجميلة مبعثرة.

حاول بورغيز بواسطة الألواح الخشبية، والواح من التنك طويلة، ان يرمم الأمكنة الواطئة، ويكون منحدرا خفيفا، يسهل انزلاق السيارة عليه. ولكن، ما ان انطلق، حتى تطايرت


سيارتا دوديون والسبايكر تجتاز قرية من قرى الصين.

الألواح وراء السيارة، وضاع الجهد، فاضطر بورغيز الى الاقلاع عن تلك الطريقة.

وقام غيزاردي بمحاولة مختلفة. اذ مد على جزء من الجسر الواحا من المطاط المسمر، وجعل يصعد ببطء شديد، رغم خطر الانهيار. ولكنه تخطى القسم الصاعد، وبدأ ينحدر ببطء اشد، فاجتاز العقبة. وعلى بعد كيلومترات واجه الجسر الثاني، ففعل ما فعل في الجسر الأول فتخطاه. اما السيارات الباقية فاستغرق عبورها الجسر الأول قرابة ساعتين، ووقتا اقل في عبور الجسر الثاني.

بعد فحص السيارات: الكاربوراتور، المحرك، البوجيات، تبين ان السيارات بطيئة جدا. وكان الليل قد اقترب، واشتد المطر. وخطر لكولينيون خاطر. فقام الى الايشاكيمان فثقبه، واخرج ما تجمع فيه من رمال ووحل، فاذا السيارة تنطلق بقوة. ولكن القافلة عسكرت في مكان لا تعرف عنه شيئا بسبب اشتداد المطر والضباب. وفي الصباح تبين لها انها على بعد كيلومترين من نان كيبو. وهناك استقبلها الجنود الفرنسيون بحفاوة، واقاموا مادبة عامرة

للسائقين. وفي هذا الوقت وصل بونس وفوكو بالقطار.

جر السيارات بالحبال

لم يكن ممكنا قطع المسافة بين نان كيبو وكالغان بواسطة المحركات. وذلك لكثرة المنحدرات والمنعطفات والصخور، وتقارب المطبات. وقد حاول بورغيز المضي لوحده، بعد ان ودع زوجته التي رافقته من بكين ولكن الأمر استحال.

اضطر الجميع الى الاستعانة بحمالين اتي بهم من بكين، بالقطار.

تخطى بورغيز الجدار المقدر قبل غياب الشمس. ولكن السيارات الباقية خيمت في قرية قريبة من الجدار. وهكذا بات بورغيز، خلال خمسة ايام، متقدما على السبايكر والسيارات الأخرى.

ارض العشب

بعد آخر منعطف من المنعطفات الصعبة التي واجهتها السيارات، افضت الى سهل متسع معشب.

اغتنم بورغيز الفرصة واقلع باتجاه هضبة مونغوليا. دون أن يتوقف الا للتزود بالماء.

اما السيارات الأخرى فلقيت صعوبات جمة، خاصة ذات الدواليب الثلاثة. وبلغ بورغيز كالغان قبل الجميع. وهناك اعاد غيزاردي ما انتزعه من جسم السيارة اليها، ومن الخزانات. اما السيارات الأخرى فلم تصل كالغان الا في الغد (١٦ حزيران). وقام السائقون ومعاونوهم بفحص السيارات. واقام لهم مدير البنك الروسي — الصيني حفلة عامرة.

كانت المرحلة التالية بلوغ اورغا، على مسافة ثمانمائة كيلومتر، مع انهم لم يبتعدوا خلال كل الأيام السابقة الا ٢٤٠ كيلومترا عن بكين. وكان على السيارات ان تعبر مسار شلال جاف، ذا انحدار شديد.

تعاون الجميع لقطع المسافة التي تفصل كالغان عن ارض العشب في منغوليا. ذلك ان بعض السيارات، خاصة ذات الدواليب الثلاثة، كانت تعوق التقدم.

وحين تخطت السيارات المسافة الأولى افضت الى منطقة صحراوية، لا يستهدي فيها السائقون الا بأعمدة الهاتف.

كانت الكيلومترات التسعون الأولى سهلة. وقد قضى الجميع ليلة هادئة. في الصباح، سارت السيارات، وقد تقدمتها ذات الدواليب الثلاثة. وتأخرت ايطالا. غير ان السيارة الأولى تخلفت، ولحق بها بورغيز وتخطى الجميع الى بونغ كونغ، حيث مكتب تلغراف وبئر. وشاء الصحفي بارزيني ارسال برقية الى جريدته، فأعطاه المسؤول ورقة عليها الرقم واحد، فاذا هي البرقية الأولى منذ اسس المكتب قبل ست سنوات.

مشكلة بونس ومشكلة غودار

كان بورغيز قد تخطى بونس. هل كان بونس بحاجة الى مساعدة؟ ظل الأمر سرا حتى اليوم. لم يكن بونس في منطقة صعبة على كل حال. وقد اتفق الجميع على انه لا يستطيع الاستمرار، فهل يقتنع؟ سيساعدونه ولكنهم لا يستطيعون التوقف من اجله كل مرة. والسباق هو السباق!.

ضحى غودار ببعض المحروقات واعطاها لبونس. وطلب من بورغيز ان يبرق الى مدينة اود ـــ مركز التخييم التالي ـــ لتحضر له البنزين. ولم يكن يعلم ان مدخرات بنزينه لا تكفي لقطع اخطر مرحلة من الصحراء.

تقدم بورغيز المتسابقين. وبعد مائة كيلومتر بلغوا صحراء غوبي. كان عليهم قطع عشرات الكيلومترات، في ارض قاحلة جافة صعبة المسالك، لا تقطعها القوافل نهارا ابدا.

بدأ العطش يضغط عليهم. واشتد التعب. ولكنهم التقوا قافلة تحمل البنزين مع برقية دوتايي. وادركوا ان السبايكر تعاني من نقص البنزين.

والواقع ان غودار نفدت محروقاته. فأعاره سائقا سيارتي دوديون بعض ليترات البنزين، على مضض. وبعد بضعة كيلومترات نفدت ثانية. وقد اكد دوتايي، فيما بعد، ان لديهما خزانين احتياطيين فيهما ثمانون ليترا، لم يمسا طوال الرحلة.



وصول بورغيز الى جريدة لوماتان.

اما بونس وفوكو فكانا وحيدين في الصحراء، يعانيان الجوع والعطش والحر. وقد حاولا جر سيارتهما الى اي مخيم بدوي ممكن. ولكن المنغوليين وجدوهما بعد يومين على وشك الموت. وبعد ان استعادا نشاطهما عادا الى بكين، وخلفا سيارة الدواليب الثلاثة في الصحراء.

التقى غودار ودوتايي القافلة التي حملت اليهما البنزين، فأنقذتهما. وبعد ثلاث ساعات بلغا اود. وتخطيا ستمائة كيلومتر وبلغا اورغا على بعد ستمائة كيلومتر. وابرق دوتايي الى جريدته معبرا عن فرحه بالانتصار: «تركنا اود، في قلب صحراء غوبي، الأحد، السادسة صباحا. ومضينا دون توقف الى اورغا، التي بلغناها الخامسة من الاثنين، قاطعين مسافة ٦١٧ كم بثلاث وعشرين ساعة».

علم دوتايي ان بورغيز انطلق نحو كياكتا، المدينة السيبيرية. فقرر عدم الابطاء في الرحيل.

سيبيريا

لقي المتبارون بعض الصعوبات في منطقة الدالاي لاما، الذي اوشك ان يرفض السماح لهم باجتياز منطقته. ثم حاول شراء سيارة دوديون، فأقنعه كورمييه بأن يوصي الشركة على سيارة

جديدة، لأن سيارته لم تعد صالحة للعمل.

تخطى المتسابقون بعد ذلك الحدود النهائية للصين، ودخلوا سيبيريا. وكانوا يتوقعون يسرا وسهولة في اجتياز الطرق، اكثر من ذي قبل. ولكن صعوبات جمة واجهتهم. فالسبايكر اضطرت ان تجتاز احد المعابر المنحدرة الصخرية، راجعة الى الوراء، بينما دوديون جرتها الثيران. اما ايطالا فغرزت، لثقلها، في الوحل، وكاد بورغيز يعزف عن السباق. ولكنه استعان بالثيران، فلم تفلح. وخطرت لغيزاردي فكرة، فقد ادار المحرك، فخافت الثيران، وجمحت، فاقتلعت السيارة معها. وهكذا نجت من الفناء في الوحل.

وكان على السيارات قطع نهر بيرو. واستخدمت كل الوسائل الممكنة، فالمعبر مرمل حينا، موحل حينا. وبقيت السيارات ثلاث ساعات تقريبا حتى تخطت مسافة ثلاثمائة متر.

اخيرا بلغ الجميع كياكتا الروسية. فاستقبلوا بالشمبانيا والرقصات الفولكلورية. واعفى القيصر المتسابقين ورفاقهم من كل المعاملات التقليدية، وسمح لهم بالعبور بحرية.

وبدأت المرحلة الجديدة من السباق، تحمل ايطالا رقم (١) ودوديون الاثنتان الرقمين (٢ و ٣) والسبايكر الرقم (٤).

استؤنف السباق تحت وابل مطر مبكر ذلك العام. كانت الطريق موحلة، ذات مزالق. وتمكنت ايطالا من المتابعة ببطء، وعمدت السبايكر الى السير القهقرى. اما دوديون فاحتاجتا الى من يجرهما من الرجال.

باريس تستقبل المنتصر بورغيز على سيارة ايطالا.



ارتفعت معنويات المتبارين حين شهدوا قطار سيبيريا السريع، واتجهوا نحو بحيرة بايكال. وقد شعروا انهم انجزوا المراحل الصعبة الخطرة.

واذ بلغوا البحيرة سمح لهم بحمل سياراتهم على المراكب الى الجناح الآخر. ولكن صعوبات جديدة واجهتهم، وهي قطع الأنهار التي بدأت تفيض، وغدت جسورها فخاخا للسيارات.

فكر بورغيز بقطع الأنهر على جسور القطارات. وابرق الى سان بطرسبورج يطلب الاذن بذلك. فسمح له. وهذا ما حدا ببعضهم الى الاعتقاد انه تخطى الأنهار بالقطار.

ولكن بورغيز، بعد اجتياز الجسور الحديدية، انهار تحت سيارته الثقيلة جسر خشبي، وغدت معلقة كأنها رقاص ساعة. ولزم عون عدد كبير من السيبيريين لرفع السيارة التي استأنفت السباق.

وعانت سيارتا دوديون الكثير من الصعوبات. ولكنهما بلغتا ايركوتسك في الثالث من تموز.

اما غودار فوجد، بعد المصاعب، ان المحرك لم يعد يعمل. فأبرق الى الصناعي سبايكر، الذي ارسل اليه ميكانيكيا مع قطع غيار. ولكن غودار كان قد نقل سيارته بالقطار الى تومسك، حيث قام طلاب مدرسة البوليتكنيك باصلاح العطل. وكان غودار يود الارتداد شرقا الى حيث تعطلت السيارة، ولكن كورميي ابرق الى الجهات المختصة لحرمانه من متابعة السباق، ظنا منه ان غودار استخدم القطار في السباق، وهكذا التبس الأمر على اللجنة المنظمة.

رجع غودار مسافة (٨٥٠ كم) الى تومسك التي تركتها دوديون نحو موسكو. وكان على غودار ان يعوض المسافة والوقت اذ سبقه بورغيز باثنين وعشرين يوما. وابرق الى الميكانيكي الذي ارسله سبايكر لينتظره في اومسك.

٣٠ تموز، دوديون اجتازتا الحدود الأوروبية. في السابع من آب فوجىء الجميع ان غودار قطع مسافة ٥٥٠٠ كم في اقل من خمسة عشر يوما، متخطيا في اسبوع ما انجزه بورغيز. ولو كان غودار يملك حسن التنظيم والمعرفة الميكانيكية، لبلغ باريس قبل الجميع.

أخيرا أوروبا

تابع بورغيز خطته في اتقان شديد، رغم العقبات والوحل والمزالق، وخطر العصابات المسلحة، ورغم اشتعال النار جزئيا في سيارته. ولكن رفاقه انهاروا من التعب في اومسك. مع ذلك اجرى غيزاردي فحصا على السيارة، وغير الدواليب.

ثم اجتاز الأورال. ولكن الدولاب الخلفي تحطم. وكان على بورغيز ان يتخلى عن السباق. ولكن حدادا محليا صنع للسيارة دولابا بديلا. وقد انجزه في ثماني ساعات.

بلغ قازان، ثم نيجنينيفغورود، العاصمة القديمة. ثم موسكو التي جرى له فيها استقبال فخم. واغتنم غيزاردي الفرصة لفحص السيارة، وغير الدولاب الذي صنعه له الحداد المحلي.

ترك موسكو في ٣١ تموز. فلم يتجه مباشرة الى فارسوفيا وانما الى سان بطرسبورغ، ليقدم تحياته للجنة السباق الروسية فيها. في هذا الوقت كانت دوديون في الأورال، والسبايكر في سيبيريا. وقد واجهت السيارات الثلاث التي التقت في قازان أمطاراً شديدة، ووحولاً جارفة، فانخفضت السرعة الى عشرة كيلومترات في الساعة. ولم تتحسن الطريق الا بعد نيجنينيفغورود.

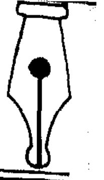
بلغت السيارات موسكو في ١٤ آب، بتأخير اسبوعين عن بورغيز. اما اجتياز بولونيا والمانيا وبلجيكا وشرق فرنسا فكان نزهة بالقياس الى ما لقيه المتبارون في الصين وسيبيريا.

مساء التاسع من آب قضى بورغيز الليل في (مو) بينما كان جمهور ضخم جدا ينتظره في باريس للاحتفاء بانتصاره وسيارته، رغم تخلف السيارتين الفرنسيتين دوديون!.

اما غودار فقد حرمته اللجنة من المرتبة الثانية. واقامت لجنة «لوماتان» للسباق الدعوى عليه وسجنته، ولكن المحامي انقذه.

ورغم ان غودار تصالح مع سبايكر فانه فضل العمل مع دوديون. اما دوتايي ففضل السبايكر.

وحين دخلت السيارات باريس منع بعضهم غودار من الدخول. ونعت بالمحتال. فبكى بكاء حارا!. ●





جمال الدين الأفغاني الثائر.. العظيم

صبحي منذر ياغي

كان الاستعمار وما زال يتكالب على وطننا مستعملاً شتى الوسائل والأساليب لتجزئة الوطن العربي والدفع بأبنائه إلى حضيض الجهل والتخاذل. وكانت القوى التحررية الثائرة، وما زالت، تقف بوجه هذا الاستعمار القذر، تحطم مخططاته الخبيثة هادفة إلى توعية أبناء هذا الوطن العربي من المحيط إلى الخليج للوقوف صفاً واحداً بوجه القوى الاستعمارية الرامية للنيل من وطننا.. واستغلاله، والسيطرة عليه اقتصادياً وثقافياً.. وسياسياً..

وفي عام ١٨٣٨ وعندما استطاع الاستعمار الانكليزي احتلال عدن في جنوبي اليمن ولد الثائر «جمال الدين الأفغاني» في بلدة تدعى (اسعداباد) وكان ينتمي إلى أسرة عربية الأصل والنسب يصل نسبها للامام الحسين بن علي بن أبي طالب! ولذلك كان جمال الدين الأفغاني يوقع مراسلاته باسم (جمال الدين الأفغاني الحسين).

لقد كان جمال الدين الأفغاني منذ نعومة أظفاره ميالاً إلى الذكاء يفتش عن المعرفة. فعندما انتقلت أسرته إلى ايران بعدما طردها أمير أفغانستان لخوفه من نفوذها، كان جمال الدين الأفغاني يتردد إلى طهران ويجلس إلى علمائها يستمع للدروس العلمية ويشترك معهم بالأسئلة والمناقشة حتى نال اعجاب كبير هؤلاء العلماء فاشترى لجمال الدين الأفغاني عمامة صغيرة وعباءة رجل دين!! وذلك لشجاعته وأدبه. وهكذا ارتدى جمال الدين الافغاني زي الرجل الديني رغم صغر سنه. لقد تلقى الأفغاني علومه في اللغة العربية في النجف عام ١٨٤٩ وذلك عندما سافر إليها مع والده. وقرأ الأحاديث النبوية والفلسفة الاسلامية.

وهكذا كانت الأيام تتوالى.. وجمال الدين الأفغاني ينظر إلى العالم الاسلامي! كيف يتكالب عليه الاستعمار رامياً إلى احتلاله والسيطرة عليه، وكانت عزيمة التحرر تغلي في ذاته.. وكان قد بدأ ينشر افكاره ومبادءه بين الشباب في كافة الأقطار العربية والاسلامية. وكانت أفكاره تلاقي ترحيباً.. وتأييداً.. وهكذا انشأ الأفغاني في مصر اول تنظيم سري دعاه (الحزب الوطني الحر) وذلك سنة ١٨٨١م ضد الاستعمار وقد أثار هذا الحزب خوف الخديوي توفيق حاكم مصر فسارع إلى نفي جمال الدين الأفغاني إلى الهند.

وعندما حدثت الثورة العرابية في مصر كان للحزب الوطني الحر الدور الأكبر فيها فسارعت الحكومة الانكليزية التي كانت تحكم الهند إلى

نفي الأفغاني إلى (بمباي) ومنها إلى (كلكتة). وهكذا سافر جمال الدين إلى باريس فلحقه إليها تلميذه الشيخ محمد عبده، وكان هذا الأخير الرجل المدافع عن الحق دفاعاً حقيقياً وقال قوله الشهير: (من عرف الحق عزا عليه أن يراه مهضوماً). وهنالك أسس جمال الدين الافغاني تنظيمه الجديد «العروة الوثقى» وقد استمد مبادئه من تراث الحضارة العربية الاسلامية وكان هذا التنظيم سرياً وكان أعضاؤه منتشرين في كافة أرجاء الوطن العربي والاسلامي وقد أصدر هذا التنظيم جريدة تنطق باسمه (العروة الوثقى) وكانت هذه الجريدة تساهم مساهمة فعالة في نشر أفكار ومبادىء التنظيم وإثارة المسلمين والعرب لتحقيق قضاياهم ولاسترجاع حقوقهم وتثبيت أقدامهم بعزيمة وبأس. وعندما توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور ظل الناس ينسخون مقالاتها بأيديهم ويتناقلونها فيما بينهم. وكان جمال الدين الأفغاني يوقع كتاباته في أكثر الأحيان باسم (مظهر بن وضاح).

وبعد انتقال جمال الدين الأفغاني إلى تركيا بعد أن دعاه إليها السلطان (عبد الحميد) توفي فيها عام ١٨٩٧ بعدما قضى حياته داعياً الشعوب المستضعفة إلى نيل حريتها وكرامتها وإلى التحرر من نير الاستعمار والعبودية.

حقاً مات جمال الدين الأفغاني لكن أفكاره كانت وما تزال وستظل مشعل الحقيقة الذي يضيء لنا الطريق ويبدد أمامنا دياجير الجهل والتخلف. ●

إلى المشتركين الكرام:

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

قسيمة اشتراك

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة الإشتراك باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

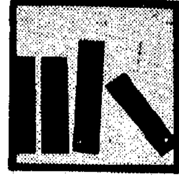
العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق اشتراكي: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

اشتراك لمدة: ☐ سنة (١٢ عدد)



الكتب المهداة إلى مجلة «تاريخ العرب والعالم»

□ **تلك الأيام مذكرات وذكريات (١)، (٢)**
● سيرة انسان، ومسيرة دولة، ومسار أمة
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... الدكتور حليم سعيد أبو عز الدين

□ **الجوهر النفيس في سياسة الرئيس**
دار الطليعة ــ بيروت .... تأليف: ابن الحداد
تحقيق ودراسة: الدكتور رضوان السيد

□ **الأسس البيولوجية لسلوك الإنسان**
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... الدكتور ابراهيم فريد الدُّر

□ **شرح لامية العرب**
لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري
٥٣٨ ــ ٦١٦ هـ
دار الآفاق الجديدة .... تحقيق وتقديم:
الدكتور محمد خير الحلواني
كلية الآداب ــ جامعة الرياض

□ **التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر**
من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر
لمحمد بن الطيب القادري ١١٢٤ ــ ١١٨٧ هـ
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .... تحقيق:
هاشم العلوي القاسمي

□ **العسكرية العربية الإسلامية**
عقيدة وتاريخاً، وقادة وتراثاً، ولغة وسلاحاً
دار الشروق.. تأليف:
اللواء الركن محمود شيت خطّاب

□ **رسائل في الفقه واللغة**
الطبعة الأولى ــ ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي ــ بيروت .... تحقيق:
الدكتور عبد الله الجبوري

□ **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**
طبعة جديدة فريدة ومنقحة ــ ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي ــ بيروت .... محمد العمروسي المطوي

□ **تراجم المؤلفين التونسيين (الجزء الأول)**
الطبعة الأولى ــ ١٩٨٢
دار الغرب الاسلامي ــ بيروت .... محمد محفوظ

معهد الانماء العربي

شكيب أرسلان

مقدمات الفكر السياسي

د. محمد شفيق شيا

كتاب الفكر العربي ٤